قصص الحب التاريخية

بقلم

سلامه موسى

عنيت بنشره

ادارة الهلال بمصر

مصر ١٩٢٥

مقدمة

ليس الناس سواء في القدرة على الحب كما انهم ليسوا سواء في القدرة على السعادة

والسعادة والحب كلاهما مزاج في النفس ينبعان منها ويغتذيان من البيئة . ولكن المعول في الاصل على النفس لا على البيئة . فليس يسعد الانسان ويشعر بهناء العيش والاطمئنان لانه أثرى أو لانه قد نال ما كان يتمناه من عقار أو مقام أو جاه أو سلطة اذا لم تكن له كفاية السعادة كامنة فيه من الاصل قبل أن يحوز كل هذا . وكذلك ليست المرأة كائنة ما كانت محاسنها وفضائلها علة الحب الوحيدة لانه لا يقدر على الحب الا من به كفاية الحب

وأكثر الناس نعتريهم الشهوة الحيوانية الجنسية فيعتقدون ان رغبات الجسم الحسية حب صادق . ولكن هناك فرقاً بين الحب والشهوة . فالشهوة عادية غاصبة ماحة تنشط في فترات ونوبات بينما الحب دائم متصل لا يعدو

ولا يغصب بل قد يضطر صاحبه الى بذل نفسه والتضحية بمصالحه من أجل حبيبته

ولكن أساس الحب هو الشهوة . وليس ثم فاصل يميزها ويفرق بينهما . فقد ينحط الحب حتى يصير شهوة وقد ترتفع الشهوة حتى تصير حباً لا يكاد يحس الحبيبان بنوازعها

وليست العلاقة الجنسية بين ذكور الحيوان وأناثه على وجه العموم سوى غلمة هي حرقة تشبه حرقة الجوع ما أسرع ما تنطفىء . وهي كذلك أيضاً بين الكثرة المطلقة من بني البشر . وليس ينكر ان بين بعض الحيوان شيئاً من الحب أو بذرته التي نجدها في الاقلية الصغيرة من الناس. فانا نرى الديك يألف الدجاجة فيُلقى له الحب فيحجم عنه لا يمسه ويأخذ في القوقأة يناديها حتى تلتقطه أمامه . فهو يضحي بشهوته للطعام من أجل أليفته . وهذه احدى بذور الحب . وكذلك الحال في بعض أنواع الحيوان الاخرى

والذكر في جميع أنواع الحيوان هو الذي ينشط الى الانثى وهو الذي يبتدىء ويدعو وهي في أغلب الاحوال يشملها السكون وتقتصر على التلبية عند الرغبة . وليس يشذ

نوع الانسان عن هذه القاعدة . ومما هو جدير بالذكر ان بذرة الذكر في جميع الحيوان هي أيضاً التي تنشط الى بيضة الانثى فتتحرك نحوها وتلقحها بينما تبقى البيضة هادئة في مكانها

وحب الرجل يختلف عن حب المرأة . فشهوة الرجل ملحة تحزب صاحبها وتلزه ولا تخلي عنه حتى يشبعها ويترضاها فاذا فعل هدأت عواطفه وحدث له بحكم الالحاح السابق فتور قد يبلغ حد الصدود . ولهذا نحب الرجل المرأة يتراوح على الدوام أيضاً من الحرارة الى الفتور ومن الاقبال الى الصدود . وهذا بخلاف الحال في المرأة فهي أضعف شهوة وهي لذلك أضعف حباً ولكن حبها أدوم واثبت . والمرأة بحكم الامومة تميل طبيعتها الى الحب والعطف فهي لذلك أقدر على الحب من الرجل . ومما يميزها أيضاً عليه في هذا المضمار انها بطبيعة انتاجها الاولاد تدرك معنى الايثار وتشعر به . والايثار من شروط الحب التي جبلت عليها المرأة أكثر من الرجل الذي يقتضي تنازع البقاء بينه وبين سائر الرجال أن يكون على جانب كبير من الاثرة

والطبيعة ترمي في أكثر ما خلقته لنا من الغرائز

والاعضاء الى منفعة النوع فهي قد خلقت لنا العقل لـكي يرشدنا الى أن نسوس جسمنا وندبر له حاجاته من مطعم ومسكن وزوجة وما الى ذلك . ولـكن العقل ارتفع في الانسان عن الاقتصار بالاشتغال في هذه الحاجات وعمد الى الـكواكب يدرس حركاتها بغية اللذة الفـكرية ليس غير . فكأن العقل بذلك قد خرج على الطبيعة وعكس عليها قصدها . وكذا الحال في الحب . نشأ أولا غلمة غشيمة غايتها بقاء النوع ثم ارتقى من ذلك فصار حباً الزوجة وللعائلة وللوطن وللنوع البشرى بل ولله نفسه . . ولهذا السبب عينه قلّ من عرف الحب وكثر من عرف سورة الشهوة الجنسية اذ لا يرقى الا الاقلون

والحب الصادق يقتضى الحرية في المرأة لأنه ينشأ وينمو بالمخالطة والقرب والبلاء ولا يطفر الى القلب بالنظرة المختاسة من وراء الاستار والجدران . ولذلك تكثر قصص الحب في الغرب حيث الحرية وتقل في الشرق حيث النساء في اسر الحجاب

والناس مفطورون على الشغف بمعرفة سير العظماء في الحب سواء اكانت غاية هذا الحب امرأة أم وطناً أم مبدأ .

وفي مايلي سير بعض هؤلاء العظماء وقد توخينا أن نكثر من الأدباء لأنهم اقدر من غيرهم على الاداء . وعاطفة الحب من العواطف التي تخرس اللسان فلا يفصح عنها الا المدرب على حسن التعبير الممارس لاساليب الكلام

سلامه موسى

رأي العرب

في الحب والعشق

قال شهاب الدين النويري في « نهاية الارب » :

اول ما يتجدد الاستحسان للشخص تحدث ارادة القرب منه ـ ثم المودة ، ثم يقوى الود فيصير محبة ، ثم يصير هوى ، ثم يصير عشقاً ، ثم يصير تتيما ، ثم يزيد التتيم فيصير ولهاً

وأما سبب العشق فهو مصادفة النفس مايلائم طبعها فتستحسنه وتميل اليه . وأكثر اسباب المصادفة النظر . ولا يكون ذلك باللمح ؛ بل بالتثبت في النظر ومعاودته بالنظر . فاذا غاب المحبوب عن العين طلبته النفس ورامت التقرب منه وتمنت الاستمتاع به . فيصير فكرها فيه وتصويرها اياه في الغيبة حاضراً ، وشغلها كلها به ؛ فيتجدد من ذلك امراض لانصراف الفكر الى ذلك المعنى . وكلما قويت الشهوة البدنية ، قوي الفكر في ذلك

وذكر بعض الحكماء أنه لايقع العشق الا لمجانس وأنه يضعف ويقوى على قدر التشاكل . واستدل بقول النبي صلى الله عليه وسلم : « الارواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » قال : وقد كانت الارواح موجودة قبل الاجسام . فمال الجنس الى الجنس . فلما افترقت الاجسام بقي في كل نفس حب ما كان مقارنا لها . فاذا شاهدت النفس من نفس نوع موافقة ما،

مالت اليها ظانة انها هي التي كانت قرينتها . فاذا كان التشاكل في المعاني كانت صداقة ومودة . وان كان في معنى يتعلق بالصورة كان عشقاً . وانما يوجد الملل والاعراض من بعض الناس لأن التجربة ابانت ارتفاع المجانسة والمناسبة

وقال بعض الحكماء :

ليس العشق من ادواء الحصفاء الحكماء . انما هو من امراض الخلعاء الذين جعلوا دأبهم ولهجهم متابعة النفس وارخاء عنان الشهوة وامراح النظر في المستحسنات من الصور . فهنالك تتقيد النفس ببعض الصور فتأنس ، ثم تألف ، ثم تتوق ، ثم تلهج

وقال ابن عقيل: العشق مرض يعتري النفوس العاطلة والقلوب الفارغة المتلمحة للصور لدواع من النفس ، وبساعدها ادمان المخالطة فيتأكد الألف ويتمكن الانس ، فيصير بالادمان شغفاً. وما عشق قط الا فارغ . فهو من علل البطالين وامراض الفارغين من النظر في دلائل العبر ، وطلب الحقائق ، المستدل بها على عظم الخالق . ولهذا قلما تراه الا فى الرعن البطارين . وارباب الخلاعة النوكى . وما عشق حكيم قط . لأن قلوب الحكماء اشد تمنعاً عن ان توقفها صورة من صور الكون مع شدة طلبها ، فهي ابداً تلحظ وتخطف ولا تقف . وقلّ ان يحصل عشق من لمحة . وقلّ ان يضيف حكيم الى لمحة نظرة . فانه مار في طلب المعاني ، ومن كان طالباً لمعرفة الله لا توقفه صورة عن الطلب لأنه تحجبه عن الصور

وقال الربعي : سمعت اعرابية تقول : مسكين العاشق.كل شيء

عدوه ! هبوب الريح يقلقه ، ولمعان البرق يؤرقه ، ورسوم الديار تحرقه ، والعدل يؤلمه ، والتذكر يسقمه ، والبعد والقرب يهيجه ، والليل يضاعف بلاءه ، والرقاد يهرب منه . ولقد تداويت بالقرب والبعد فلم ينجع دواء ، ولا عز عزاء

وقال داوود الانطاكي في كتابه « تزيين الاسواق بتفصيل اشواق العشاق » عن بعض البلغاء :

العشق فضيلة تنتج الحيلة وتشجع أجبان وسخي كف البخيل وتصفي ذهن الغبي وتطلق بالشعر لسان الاعجم وتبعث حزم العاجز الضعيف . وهو عزيز يذل له عز الملوك وتصرع له صولة الشجاع . وهو داعية للأدب واول باب تفتق به الاذهان والفطن ويستخرج به دقائق المكايد والحيل . واليه تستريح الهمم وتسكن به فوائر الاخلاق والشيم ، يمتع جليسه ويؤنس اليفه ، وله سرور يجول في النفوس ، وفرح يسكن في القلوب

وقال ابن خلكان في ترجمة العلاف ما ملخصه ان العشق جرعة من حياض الموت وبقعة من رياض الثكل لكنه لا يكون الا عن اريحية في الطبع ولطافة في الشمائل وجود لا يتفق معه منع وميل لا ينفع فيه عدل

وقال بعض « العارفين » شرط المحبة ان تكون ميلا بلا نيل وشرط بلا جزاء لئلا تزول عند زوال العوض ويتأكد ذلك في احباء الله عز وجل

رأي الافرنج

في الحب والعشق

قال جيته : نحن نتكيف ونتشكل طبق ما نهوى

وقال فولر : المحبة كالضمير احرى بها أن ترشد وتقاد لا أن تجرّ وتغتصب . واولئك الذين يتزوجون من لا يحبون ، يحبون غير من يتزوجون

وقالت مدام دو ستايل : العشق الذي هو عارض فى حياة الانسان يستغرق حياة المرأة باجمعها

وقال فنسنت : لست من اولئك الذين لا يؤمنون بامكان الحب من اول نظرة ولكني اؤمن بوجوب النظر مرة اخرى

وقالت مدام دوديفان : ان الرجل الذى تحبه امرأة جميلة فاضلة يحمل من حبها طلسما يمنعه ويكسبه الحصانة ويشعر كل من رآه أن حياته أعلا قيمة من حياة الآخرين

وقال كوتون : كثيراً ما تنتهي الصداقة بالحب ولكن لا يمكن الحب أن ينتهي بصداقة

وقال لونجفيلو : ليس في حياتنا ما هو أقدس من الشعور بدبيب الحب الاول ، تلك الرفرفة الاولى لأجنحته الحريرية وتلك الوسوسة الاولى تتعالى وتطمو ، وأنفاس تلك الريح تسارع الى النفس فتغمرها فأما تطهرها واما تدمرها

وقال كونون : في الحب كما في الحرب يعزى نجاحنا الى ضعف وسائل الدفاع أكثر مما يعزى الى عنف الهجوم وسطوته

وقال دريدن : حسبك الحب جزاء للحب

وقال فولتير : الحب لوحة الرسم تزودها الطبيعة ويوشيها الخيال.

وقال هربرت : الحب كالسعال ليس من المستطاع اخفاؤه

وقالت مس جوزبري : الحب يطهر القلب من الاثرة ويمنح الخلق قوة ورفعة ويوجه الحياة في جميع الاعمال الى المقاصد الشريفة ويزيد الرجل والمرأة كليهما قوة وشرفا وشجاعة . وخير هبة توهب لانسان هي تلك القدرة على أن يحب حباً صادقاً اميناً . والحب نار مقدسة يجب أن لا تحرق امام الاصنام

وقال كار : لا يحسن الانسان الاداء عن الحب الا اذا كان لا يشعر به

وقال سيجار : الحب كالقمر اذا لم يأخذ في الزيادة أخذ في النقصان

وقالت مسز تشيلد : دواء جميع الادواء وعلاج هموم الانسانية واحزانها وجرائمها هو الحب . فهو العنصر الحيوي الالهي الذي يحدث الحياة ويردها . وهو اذا شئنا سبيل القوة وفعل المعجزات

وقال لاروشفوكو : قد يسلك الرجل الحكيم في حبه سلوك المجانين ولكنه لا يسلك سلوك البله

وقال أيضا : ليس شيء يستر الحب حيث يكون ولا شيء يظهره حيث لا يكون

وقالت نينون دولنكلو : لا قيمة في الحب لانقار الرجل الى الجمال اذا لم تنقصه الصفات الاخرى المحبوبة . فان القلوب لا تفتح الا بالعطف ولبس الخلد أكثر عمى من المرأة العاشقة

وقال الجر : الطاعة وقت الحب اخف محملا من الحرية

وقال بولور : نبرات العشق هي كل ما تخلف لنا من لغة الفردوس.

وقال اديسون : ليس يوجد في الخلق نوع من الحب أكثر طهارة وأشبه بالملائكة من حب الوالد لابنته . فهو يرمقها بالعين المجردة وبالعين التي تتلمح فيها جنسها . فحب الزوج لزوجته مشوب بالرغبة وحب الاب لابنه مشوب بالطمع أما حب الاب لابنته ففيه شيء لا تستطيع اللغة التعبير عنه

وقال بترارك : الحب هو النعمة التي تتوج بها الانسانية وهو أيضا اقدس حقوق النفس وهو الحلقة الذهبية التي تربطنا بالواجب والحق وهو المبدأ الفادي الذي يصالح بين القلب والحياة وهو بشير السعادة الابدية

وقال شبانهيم : ليس حواريو المسيح الحقيقيون هم الذين يتفوقون في مقدار المعرفة وانما هم اولئك الذين يتفوقون في مقدارا الحب

وقال وطس : ليس يحتاج الانسان من العواطف اذا كان سيعيش عيشة أبدية الا لعاطفتين فقط : الحب وتأمل العزة الالهية

وقالت مارجريت فولر : حسب المرأة ساعة من الحب تعرف منها علائقها الحقيقية أكثر مما تعرف من جميع الفلسفات

انطونيوس وكليوبطره



كليوبطره مع قيصر

ليس في سير الحب القديمة ما هو أشهر من سيرة كليوبطرة ملكة مصر الاغريقية أو بالاحرى المقدونية . فقد وضع المؤلفون

عنها القصص والدرامات والتواريخ والقصائد ومثل غرامها المصورون والنقاشون والمثالون . وأكبر ما يجذب الناس الى قراءة سيرتها غرابة الاطوار التي تطورتها حوادثها والنهاية المفجعة التي انتهت اليها وعظم التضحيات التي ضحى بها كل من المحبين انطونيوس وكليوبطرة

وكثرة هذه السير تزيد تاريخها ابهامًا بدلا من أن توضحه . فقد ضرب أكثر من كتب عنها بسهم في الخيال وأكثر من التزويق والتزيين شأن القصاص حتى صارت الحواشي تغطي على المتن . وحتى صار يشق على المؤرخ استخلاص الحقائق من الاوهام

فقد كانت مصر في ذلك الوقت تحت حكم البطالمة وهم سلالة مقدونية اغريقية كانت تمت الى الاسكندر بالقرابة . وكان مؤسس اسرة البطالمة قائدا عند الاسكندر . وكانت الاسكندرية في وقت كليوبطرة أكبر ميناء على البحر الابيض المتوسط ومركز التجارة بين آسيا واوربا وافريقيا . وكان أكثر سكانها من الاغريق وكانت لهم مكتبة كبرى وجامعة يتعلمون فيها . فكان الوسط كله اغريقياً تكسوه الحضارة الاغريقية وتسمع فيه اللغة الاغريقية وتسيطر عليه الثقافة الاغريقية في الفنون والعلوم

وارتقت كليوبطرة الى عرش مصر وهي في السابعة عشرة . وكانت الاسكندرية قاعدة البلاد وكرسي الحكومة . وكان يبلغ سكانها نحو مليون نفس وتبلغ المكوس المضروبة على البضائع في جماركها نحو خمسة ملايين جنيه وكانت صناعات الكتان والبردي والزجاج والاقمشة رائجة فيها . وكان خمس مساحة المدينة خاصاً

بقصور الاسرة المالكة والمكتبة والمتحف تحفها وتتخللها جميعها البساتين والتماثيل والمسلات وما اليها . وقد شبهها المؤرخ الايطالي فيريرو بباريس هذه الأيام لوفرة ما كان فيها من وسائل الحضارة والترف

ولما ارتقت كليوبطرة الى العرش كانت تبعاً للسنن المتبعة في الاسرة المالكة مخطوبة الى أخيها وكان لا يزال بعد صبياً في الثانية عشرة من عمره وكان عليه أوصياء سوء أرادوا أن يستفيدوا من صغر سنه فنفوا اخته عن المدينة وولوه العرش وحده

وكانت هذه النكبة الاولى مهاراً لكليوبطرة تنبهت منه اعصابها وتذكى عقلها . فبادرت الى الذهاب الى سوريا حيث الفت جيشاً وعادت به الى مصر

وفي هذه الاثناء كان يوليوس قيصر القائد الروماني قد احتل الاسكندرية . ولم تكن تجدي فيه المقاومة لأن جيشه فضلا عما كان له من شهرة البسالة والصمد فى القتال وسائر الصفات التي تتسم بها الجيوش الرومانية كان يموده ابرع قائد في ذلك الزمان وهو قيصر . واقتصر الملك ونصحاؤه على كسب رضاه وثقته وجاءت كليوبطرة تنافس أخاها في اكتساب هذه الثقة . وكان اخوها اكبر منها ناصراً ولكنها كانت تمتاز عليه عند قيصر بجمالها وفتنتها

واتفق اكثر المؤرخين على أنها لم تكن جميلة فقد كان أنفها كبيراً ولكن الفتنة كانت في نفسها وخفة روحها . فقد وصفها المؤرخ بلوطارخ بقوله :

« لم يكن جمالها بحيث لا يمكن أن يقرن الى جمال غيرها ولم يكن من الروعة بحيث يؤثر في الناظر عند أول رؤيته لها . ولكن تأثيرها في الانسان اذا بقي مدة قصيرة في حصرتها لم يكن مما تمكن مقاومته . فقد كانت شخصيتها وحلاوة حديثها وذلك الطابع تطبع به ما تقوله او تعمله من السحر بحيث تستأثر الانسان . وكان مما يلذ للانسان ان يسمعه موسيقى صوتها الذي كان يشبه آلة وترية تختلف فيه الانغام »

واحتالت كليوبطرة لكي تصل الى يوليوس قيصر وتضمه الى حزبها فينصرها على اخيها . وكانت جيوش اخيها تحجز بينها وبينه . فوضعت نفسها في بساط لفته حولها وربط عليها . واحتملها خادم امين لها ونزل في زورق صغير حتى وصل الى حيث كان قيصر . فانزل الخادم البساط وطلب الى حرس قيصر ان يؤذنوه بوصول هدية اليه . فاذن قيصر في حمل الهدية . فما هو ان وضع البساط امامه وفكت الحبال المربوطة حوله حتى خرجت منه كليوبطره

وكان قيصر شجاعا جريئاً فلا بدع ان يعرف قيمة الشجاعة والجراءة في غيره . فاحبها وأقرها على عرش مصر دون اخيها . وحكمت البلاد منذ تلك الساعة نحو ست سنوات حكم العدل والحكمة. ثم مات قيصر في رومية مقتولا متهماً بالطموح الى الاستبداد والغاء الجمهورية . وكانت كليوبطرة قد ولدت له ولداً سماه قيصرون

وظهر في العالم الروماني عقب موت قيصر رجلان اقتسما هذا

العالم بينهما . اولهما اوكتافيوس الذي استولى على الجزء الغربي منه. وثانيهما انطونيوس الذي استولى على الجزء الشرقي

وأخذت كليوبطرة تحسب وتقدر ايهما أفضل لكي تنضم إليه وتستعين بقوته. فبقيت في ترجيح وتردد حتى توجس منها انطونيوس فاستدعاها . وكان في ذلك الوقت ضارباً خيامه في كيليكية وجيوشه تحوطه . وكان انطونيوس يمت بصلة الرحم الى يوليوس قيصر نفسه وكان شجاعا من هواة الجندية. وقد قضى بعض شبابه في لذاذات الشباب وسرف الفتوة . فانفق نحو ماية الف جنيه على الخمور والنساء وما اليها . ولكنه كان عند ما يجد الجد وتعلن الحرب يصير من مساعيرها يقاتل فيها ويدبر لعدوه المكايد ويصمد له حتى يفوز

ولم نكن ثم مندوحة لكليوبطرة من أن نلبي دعوته . فالفت اسطولا صغيراً وسارت الى كيليكية عبر البحر الابيض حتى بلغتها وصعدت الى نهر كيدنوس حيث كان انطونيوس وجيوشه . وكانت سفينتها غاية في الزينة وقد توسطتها في أفخر لباسها ووقف جواريها سماطين امامها في ابهى الحلل وأجمل الزينات . ولما وقفت سفينتها وجه اليها انطونيوس يدعوها الى العشاء فارسلت هي اليه تدعوه الى السفينة

وكانت الوليمة المعدة لانطونيوس قد هيئت بضروب الالوان الشرقية والغربية وصفت على المائدة أكواب الشراب واضيئت آلاف الشموع تحترق فتخرج منها أنفاس الطيب وتعبق فوقها سحابات من دخان العطور المحافة . وجاء انطونيوس من خيامه

وكان قد مضى عليه زمن وهو يعيش عيشة المسكرات بما فيها من شظف وخشونة فرأى في الفراش الوثير والطعام اللذيذ والشراب الفاخر والجمال الفتان ما سحر لبه وأسر قلبه وقيده اليها

ولم تكن كليوبطرة قد أحبت قبلا لأن علاقتها بيوليوس قيصر كانت قائمة على المصلحة لا على العشق . أما الآن فقد وجدت في أنطونيوس شخصاً فتياً يلبي شهواتها ويعشقها لا يبرحها طوال ليله ونهاره . فعشقته وعلقته . وربما كان يشوب هذا العشق شيء من مراعاة المصلحة من كلا الجانبين ولكن ليس شك في أنهما أخلصا الحب وتصافيا كؤوسه حتى الممات

وبقيا كلاهما معاً نحو عشر سنوات لم يفترقا الا مرة واحدة حين ذهب أنطونيوس في حملة في احدى جهات آسيا . وقد ذكر بلوتارخ أن أنطونيوس قال مرة أن التمليق أربعة أنواع أما كليوبطرة فعندها منه الف نوع. وهذا وحده يدل على سحر حديثها

قال بلوتارخ :

« كانت كليوبطرة على استعداد دائم لأن تسر أنطونيوس وتمتعه سواء اكان في حال الجد أم في حال اللهو . وكانت تلازمه ليل نهار تلاعبه النرد وتشرب معه وتخرج معه الى الصيد تقتنص معه واذا كان وتمت المران على القتال وقفت أمامه تعجب به وتصفق له »

ثم حدث النزاع بين اكتافيوس وأنطونيوس أيهما يسود العالم . وقد كان اكتافيوس يضمر السوء لانطونيوس ويتربص

به الدوائر لأن أنطونيوس كان متزوجاً أخت اكتافيوس وكان قد هجرها عندما علق كليوبطرة. وتهيأ كلا الفريقين للقتال وأعد كل منهما أسطولا. والتقيا في اكتيوم. وكانت كليوبطرة تصحب أنطونيوس اذ لم يكن يقدر على فراقها. ودار القتال برهة ظنت فيها كليوبطرة أن أسطول عشيقها قد انهزم فأمرت ربانها بالفرار. ولم تكن الهزيمة قد تأكدت ولكن قلب المرأة يساوره الهلع في ساعة الشدة التي لم يخلق لها إلا الرجال. ورأى أنطونيوس سفينة كليوبطرة تولى الأدبار. فجن جنونه واستطير وأمر أسطوله أن يدركها وهنا بانت الهزيمة الأولى

وتحصن أنطونيوس بالاسكندرية ولكن اكتافيوس هزمه مرتين حتى سلمت له جيوشه. وعرفت كليوبطرة عندئذ أنه قد قضى عليها هي وحبيبها وانها لا بد أن تقع أسيرة وتقاد في شوارع رومية مقيدة بالأغلال من الذهب وينظر اليها جمهور تلك العاصمة بعين الاستهزاء والتشفي. فأشاعت في الاسكندرية أنها ماتت حتى يكف اكتافيوس عن البحث عنها وتبحث هي في خلال ذلك عن طريقة للنجاة. وبلغت الاشاعة انطونيوس فانتحر بأن غرز سيفه في بطنه. وبلغ ذلك كليوبطرة فانتحرت هي الاخرى

جميل وبثينه

كان جميل شاعراً نشأ في قومه بني ربيعة بوادي القرى بين المدينة ومكة فأحب فتاة تدعى بثينة من بنات قومه . وكان قد علقها صغيراً فاشتهر حبهما وصل خبره الى أبيها . وكان من شر العادات عند العرب أنه اذا اشتهر حب بين اثنين منع أبو الفتاة المحبوبة زواجها من حبيبها وذلك خشية أن يتقول الناس عن سابق العلائق التي كانت بينهما قبل الزواج

فامتنع أبوها عن تزويجه فصار جميل يشبب بها ويؤلف القصائد في وصفها ومقدار حبه لها . وربما كان غرضه من ذلك أن يلقي الشك في قلوب الأغراب فيشعرهم بأن علاقته بها شديدة . ويكون من أمر ذلك فيهم أن يمتنعوا عن طلبها لأنفسهم من أبيها

وكان ذلك في عصر الدولة الأموية في خلافة عبد الملك بن مروان فاستعدى أهل الفتاة الوالي لكي يكف جميل عن التشبيب ببثينة . وبلغ ذلك جميلا ففر الى الشام ونزل عند أحد وجوه بني عذرة وكان يعرف خبره ويرحمه لما هو فيه من البلوى . ومما يحكى ان هذا الرجل احتال على جميل لكي ينسيه حبه فزين سبع بنات فكن يتصدين له متبرجات ويعاودن ذلك حتى يعلق احداهن . ففطن جميل للحيلة وصدّ عنهن وقال في ذلك :

حلفت لكيما تعلميني صادقاً ... وللصدق خير في الأمور وأنجحْ
لتكليم يوم واحد من بثينة ... ورؤيتها عندي ألذ وأملح
لرؤية يوم واحد من بثينة ... ألذ من الدنيا لدي وأملح

وكان جميل يضرب المواعيد لبثينة ويلتقيان في الخلاء . وقد روى الأغاني : « إن بثينة لما أخبرت أن جميلا قد نسب بها حلفت بالله لا يأتيها على خلاء إلا خرجت اليه لا تتوارى منه . فكان يأتيها عند غفلات الرجال فيتحدث اليها ومع اخواتها »

وهـذا يدل على أنهما تصافيا الحب وكان كلاهما محباً . وقد أكثر فيها من نظم القصائد التي كانت تنال اعجاب الفرزدق وعمر ابن أبي ربيعة . فمن ذلك قوله :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة — بوادي القرى إني إذن لسعيدْ
وهـل ألقين فرداً بثينة مرة — تجود لنـا من ودها ونجود
علقت الهوى منها وليداً فلم يزل — الى اليوم ينمى حبهـا ويزيد
وأفنيت عمري بانتظاري وعدها — وأبليت فيها الدهر وهو جديد
فلا أنا مردود بمـا جئت طالباً — ولا حبهـا في ما يبيد يبيد
وما أنس م الاشياء لا أنس قولها — وقد قربت نضوى: امصر تريد
ولا قولها : لولا العيون التي ترى — لزرتك فاعذرني فدتك جدود
خليليّ ما ألقى من الوجد قاتلي — ودمعي بما قلت الغـداة شهيد
يقولون : جاهد يا جميل بغزوة — وأي جهاد غيرهنّ أريد
لـكل حديث بينهن بشاشـة — وكل قتيل عندهن شـهيد

روى الأغاني : لقي جميل بثينة بعد تهـاجر كان بينهما طالت مدته فتعاتبا طويلا فقالت له : ويحك يا جميـل أتزعم أنك تهواني وأنت الذي تقول :

رمى الله في عيني بثينة بالقذى — وفي الغر من أنيابها بالقوادح

فاطرق طويلا يبكي ثم قال : بل أنا القائل :

ألا ليتني أعمى أصم تقودني   بثينة لا يخفى عليّ كلامها

فقالت له : ويحك ! ما حملك على هـذه المنى أو ليس في سعة العافية ما كفانا جميعاً

ومما ذكر عنهما هذه الحكاية التالية : سعت امة لبثينة بها الى أبيها وأخيها وقالت لهما ان جميلا عندها الليلة . فاتياه مشتملين على سيفين . فرأياه جالساً حجزةً منها يحدثها ويشكو اليها بثه . ثم قال لها : يا بثينة أرأيت ودي اياك وشغفي بك ألا تجزينيه ؟ قالت : بماذا ؟ قال : بما يكون بين المتحابين . فقالت له : يا جميل ! أهذا تبغي ؟ والله لقد كنت عندي بعيداً منه ، ولئن عاودت تعريضاً بريبة لا رأيت وجهي أبداً . فضحك وقال : والله ما قلت لك هـذا الا لأعلم ما عندك فيـه . ولو علمت أنك تجيبينني اليه لعلمت أنك تحبين غيري . ولو رأيت منك مساعدة عليه لضربتك بسيفي هـذا ما استمسك في يدي ولو أطاعتني نفسي لهجرتك هجرة الأبد . أو ما سمعت قولي :

واني لأرضى من بثينة بالذي   لو ابصره الواشي لقرت بلابله
بلا وبأن لا أستطيع وبالمنى   وبالأمل المرجو قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضي   أواخـره لا نلتقي وأوائله

فقال أبوها لأخيها : قم بنا فما ينبغي لنا بعد اليوم أن نمنع هذا الرجل من لقائها . فانصرفا وتركاهما

وتزوجت بثينة من آخر غير جميل ولكنها بقيت تحفظ عهده

ويزورها خفية في بيت زوجها الى أن علم روجها بذلك فشكاه للوالي، فأهدر دمه اذا عاود . فانقطع جميل عن الزيارة

روى بعضهم أنه لما منع جميل من زيارة بثينة ضاقت به الدنيا فكان يصعد بالليل على ربوة عالية يتنسم منها الريح من نحو حي بثينة ويقول :

أيا ريح الشمال أما تريني   أهيم واني بادي النحولِ
هبي لي نسمة من ريح بثن   ومني بالمحبوب الى جميل
وقولي يا بثينة حسب نفسي   قليلك أو أقل من القليل

فاذا بدا وضح الصبح انصرف . وكانت بثينة تقول لجوار من الحي عندها : ويحكن ! اني لاسمع أنين جميل من بعض الغيران . فيقلن لها : اتقي الله فهذا شيء يخيله لك الشيطان لا حقيقة له

وقد كان يتنكر أحياناً ويتخذ من اللباس ما يخفي به حقيقة شخصه ثم يزورها ويجلس مع سائر الضيوف فلا يعرف أحد أمره سواها . فمن ذلك ما رواه بعضهم أن جميلا جاء الى بثينة ليلة وقد أخذ ثياب راع لبعض الحي فوجد عندها ضيفاناً لها . فانتبذ ناحية . فسألته : من أنت ؟ فقال : مسكين . فجلس وحده وعشت ضيفانها وعشته وحده . ثم جلست هي وجارية لها على صلائهما واضطجع القوم منتحين . فقال جميل :

هل البائس المقرور دان فمصطل   من النار أو معطى لحافا فلابس؛

فقالت لجاريتها : صوت جميل والله اذهبي فانظري . فرجعت اليها وقالت : هو والله جميل . فشهقت شهقة سمعها القوم . فاقبلوا

يجرون وقالوا : ما لك ؟ فطرحت برداً لها من حبرة في النار وقالت : احترق بردي . فرجع القوم . وأرسلت جاريتها الى جميل فجاءتها به فحبسته عندها ثلاث ليال . ثم سلم عليها وخرج

قال الأغاني : لما نذر أهل بثينة دم جميل وأباحهم السلطان قتله اعذروا الى أهله . وكانت منازلهم متجاورة . فمشت مشيخة الحي الى أبيه وكان يلقب صباحاً وكان ذا مال وفضل وقدر في أهله فشكوه اليه وناشدوه الله والرحم وسألوه كف ابنه عما يتعرض له ويفضحهم به في فتاتهم فوعدهم كفه ومنعه ما استطاع ثم انصرفوا . فدعا به وقال له : يا بني حتى متى أنت عمه في ضلالك لا تأنف من ان تتعلق بذات بعل يخلو بها وأنت عنها بمعزل ثم تقوم اليك فتغرك بخداعها وتريك الصفاء والمودة . وهي مضمرة لبعلها ما تضمره الحرة لمن ملكها فيكون قولها لك تعليلا وغروراً . فاذا انصرفت عنها عادت الى بعلها على حالتها المبذولة . ان هذا لذل وضيم . ما أعرفه اخيب سهماً ولا أضيع عمراً منك . فانشدك الله الا كففت وتأملت أمرك فانك تعلم أن ما قلته حق . ولو كان اليها سبيل لبذلت ما أملكه فيها . ولكن هذا أمر قد فات واستبد به من قدر له وفي النساء عوض . فقال له جميل : الرأي ما رأيت والقول كما قلت فهل رأيت قبلي أحداً قدر أن يدفع عن قلبه هواه أو ملك أن يسلي نفسه أو استطاع أن يدفع ما قضي عليه . والله لو قدرت أن أمحو ذكرها من قلبي أو أزيل شخصها عن عيني لفعلت . ولكن لا سبيل الى ذلك وإنما هو بلاء بليت به لحين قد أتيح لي . وأنا أمتنع من

طروق هذا الحي والالمام بهم ولو متُّ كمداً . وهـذا جهدي ومبلغ ما أقدر عليه . وقام وهو يبكي فبكى أبوه ومن حضر

ويروى أنه على الرغم من هذه الأخطار التي كانت تحول دون لقاء بثينة بجميل فقد التقيا وودعها وانصرف من وادى القرى الى مصر حيث مات

وجميل من الشعراء الذين يمتازون بصـدق اللهجة والاحساس فكان سيبه يعبر عن عاطفة صادقة لا رياء فيهـا . وكثيراً ما يحس الانسان آلامه وهو يشـكو . ومن أجمل ما نظم حين صدت عنه بثينة قوله :

فيا قلب دع ذكرى بثينة انها ... وان كنت تهواها تضن وتبخلُ
وقد أيأست من نيلها وتجهمت ... ولليأس ان لم يقدر النيل امثل
والا فسلها نائلا قبل بينهـا ... وابخل بها مسئولة حين تسـأل
وكيف ترجي وصلها بعد بعدها ... وقد جز حبل الوصل ممن تؤمل
وان التي أحببت قد حيل دونها ... فكن حازماً والحازم المتحول
ففي اليأس ما يسلي وفي الناس خلة ... وفي الارض عمن لا يؤاتيك معزل
بدا كلف مني بهـا فسـاقلت ... وما لا يرى من غائب الوجد أفضل

يزيد وحبابة

كان يزيد بن عبد الملك من خلفاء الدولة الاموية وكان يعشق جارية له تدعى حبابة عرفها مغنية جميلة فاشتهاها ثم أحبها وأخلص في حبه حتى بلغ من جزعه على فقدها ان مات بعد موتها بخمسة عشر يوماً

ولا يعرف هل كانت حبابة تحبه بمقدار ما أحبها . فقد نشأت نشأة القيان ولابست تلك الظروف التي تلابس تربية القيان وعشرتهن وما فيها من سرف في الشهوات والملذات . ومثل هذه العيشة تبلد الحواس وتزيل منها رقتها وقلما يجد الحب المخلص مجازاً اليها في هذه الظروف

فقد كانت حبابة تسمى العالية وهي من مولدات المدينة وكانت حلوة جميلة الوجه ظريفة حسنة الغناء طيبة الصوت ضاربة بالعود . واشتراها يزيد بألف دينار قبل أن يرقى عرش الخلافة . وبلغ ذلك سليمان خليفة الامويين فهمّ بالحجر عليه لسفهه وانفاقه هذا المبلغ الكبير ثمناً للجارية . فردها يزيد الى مولاها . ثم مات سليمان بعد ذلك وصار يزيد خليفة وكانت زوجته سعدة تعرف مكانة هذه الجارية في قلبه وتعلم انه لا بد طالبها . فاشترتها . فلما حصلت عندها قالت له : هل بقي عليك من الدنيا شيء لم تنله ؟ فقال : نعم العالية . فقالت : هذه هي وهي لك . فسماها حبابة وعظم قدر سعدة عنده . ويقال انها أخذت عليها قبل أن تهبها له أن توطّىء لابنها عنده في ولاية العهد وتحضرها بما تحب

وبقيت حبابة أثيرة عند يزيد فكان كلفاً بها يلازمها في طعام وشراب وغناء . وكان رجالات بني أمية يلومونه على استهتاره وتعلقه بهذه الجارية فيردهم ولا يسمع لهم . وكانت هي من ناحية أخرى لا تدرك شيئاً من مصالح الأمة أو مصالح الخلافة فكانت تستخدم جميع الاساليب النسائية في جذبه وتعلقه بها

فقد ذكر أن مسلمة أقبل على يزيد يلومه في الالحاح على الغناء والشرب وقال له : انك وُلّيت بعقب عمر بن عبد العزيز وعدله . وقد تشاغلت بهذه الامة عن النظر في الامور . والوفود ببابك وأصحاب الظلامات يصيحون وأنت غافل عنهم . فقال يزيد : صدقت والله . وهمّ بترك الشرب ولم يدخل على حبابة أياماً . فدست حبابة الى الاحوص أن يقول أبياتاً في ذلك . وقالت له : ان رددته عن رأيه فلك الف دينار . فألف الاحوص جملة أبيات ودخل على يزيد وأنشده :

ألا لا تلمه اليوم ان يتبلدا ... فقد غلب المحزون ان يتجلدا
بكيت الصبا جهدي فمن شاء لامني ... ومن شاء آسى في البكاء وأسعدا
واني وان فندت فى طلب الغنى ... لأعلم اني لست في الحب أوحدا
اذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى ... فكن حجراً من يابس الصخر جلمدا
فما العيش الا ما تلذ وتشتهي ... وان لام فيه ذو الشنان وفندا

فلم يتحرك يزيد الى حبابة بهذا الاغراء وبقي أسبوعاً لا يطلبها فلما كان أحد الايام قالت حبابة لبعض جواريها : اذا خرج أمير المؤمنين الى الصلاة فاعلميني . فلما أراد الخروج أعلمتها . فتلقته

والعود في يدها فغنت البيت الاول . فغطى يزيد وجهــه وقال : مه. لاتفعلي . ثم غنت : فما العيش الا ما تلذ وتشتهي . فعدل اليها وقال : صدقتِ والله فقبح الله من لامني فيك . ياغلام . مر مسلمة أن يصلي بالناس . وأقام معها يشرب وتغنيه

وكان عند يزيد جارية أخرى تحكم الضرب والغناء أكثر من حبابة . وكانت تدعى سلامة . وكان يزيد يؤثر حبابة عليها لمكانها في قلبــه ويشهد كذباً بفضلها عليها . والحكاية التالية التي ذكرها الاغاني تمثل بعض خلال يزيد ومبلغ استهتاره وطربه :

اختلفت حبابة وسلامة في غناء هذا البيت :

وترى لها دلا اذا نطقت به   تركت بنات فؤاده صعرا

فقال يزيد : من أين جاء اختلافكما والصوت لمعبد ومنه أخذتماه . فقالت هذه : هكذا أخــذته . وقالت الاخرى : هكذا أخذته . فقال يزيد قد اختلفتما ومعبد حي بعد . فكتب الى عامله بالمدينة يأمره بحمله اليه ... فلما دخل معبد اليه لم يسأله عن الصوت ولـكنه أمره أن يغني . فغناه :

فيا عز ان واشٍ وشى بي عندكم   فلا تكرميه أن تقولي له مهلا

فاستحسنه وطرب . ثم قال : ان هاتين اختلفتا في صوت لك فاقض بينهما

فقال لحبابه : غني . فغنت . وقال لسلامــة : غني . فغنت . فقال : الصواب ما قالت حبابة . فقالت سلامة : والله يا ابن الفاعلة انك لتعلم ان الصواب ما قلت ولـكنك سألت أيتهما آثر عند أمير

المؤمنين . فقيل لك حبابة فاتبعت رضاه وهواه . فضحك يزيد وطرب وأخذ وسادة فصيرها على رأسه وقام يدور في الدار ويرقص ويصيح : السمك الطري أربعة أرطال عند بيطار حيان . حتى دار الدار كلها ثم رجع فجلس في مجلسه وانشأ هذين البيتين :

ابلغ حبابة أسقى ربعها المطر ما للفؤاد سوى ذكراكمو وطرْ
ان سار صحبي لم أملك تذكركم أو عرسوا فهموم النفس والسهر

فغناهما معبد وطرب يزيد

وقيل في وفاة حبابه ان يزيد بن عبد الملك نزل بيت رأس بالشام ومعه حبابة . فقال يزيد : زعموا انه لا تصفو لأحد عيشة يوما الى الليل الا يكدرها شيء عليه . وسأجرب ذلك . ثم قال لمن معه : اذا كان غد فلا تخبروني بشيء ولا تأتوني بكتاب . وخلا هو وحبابة فاتيا بما يأكلان . فأكلت رمانة فشرقت بحبة منها فماتت . فاقام لا يدفنها ثلاثاً حتى تغيرت وانتنت وهو يشمها ويرشفها . فعاتبه على ذلك ذوو قرابته وعابوا عليه ما يصنع وقالوا : قد صارت جيفة بين يديك . فأذن لهم في غسلها ودفنها . فاخرجت في نطع وخرج معها لا يتكلم حتى جلس على قبرها . فلما دفنت قال : أصبحت والله كما قال كثير :

فان يسل عنك القلب أو يدع الصبا فباليأس يسلو عنك لا بالتجلد

فما أقام الا خمس عشرة ليلة حتى دفن الى جنبها

وقيل في حكاية أخرى انه اشتاق اليها بعد ثلاثة أيام من دفنه اياها فقال : لا بد من أن تنبش . فنبشت وكشف له عن وجهها وقد

تغير تغيراً قبيحاً . فقيـل له : يا أمير المؤمنين : اتق الله ألا ترى. كيف قد صارت ؟ فقال : ما رأيتها قط أحسن منها اليـوم . لخرجوها . فجاءه مسلمة ووجوه أهله فلم يزالوا به حتى أزالوه عن ذلك ودفنوها . وانصرف فكمد كمداً شديداً حتى مات فدفن الى جانبها

وقد روى الاغاني انه لما ماتت حبابة لم يستطع يزيد الركوب من الجزع ولا المشي . فحمل على منـبر على رقاب الرجال . فلما دفنت قال : لم اصلِّ عليها انبشوا عنها . فقال له مسلمة : نشدتك الله يا أمير المؤمنين انما هي امـة من الاماء وقد واراها الثرى . فلم يأذن يزيد للناس بعد حبابة الا مرة واحدة .. ولم ينشب ان مات كمداً

فليس يشك من هـذه الروايات في أن يزيداً كان مخلصا في حبه لهـذه الجارية ولـكن ليس هناك ما يدل على اخلاصها . ولو أخلصت لما تركته يستهتر كل هذا الاستهتار ويهمل شئون الدولة . وربما لو طالت مدتها معاً لـكان يؤدي كلفه بها ولزومـه اياها الى خلعه . وليس يقوم الجهل عـذراً لحبابة لأنها لم تـكن مثل سائر النساء . فان القيان كن يعلمن من الأدب ما ينير أذهانهن ويجعلهن في مستوى الرجال معرفة بالتاريخ والاشعار . وكن يتقلبن في مختلف المعايش فيكسبن بذلك تجارب قد لا يكسبها الرجال

كثير وعزة

ليس يعرف متى وُلد كثيّر وإنما المشهور أنه هلك في سنة ١٠٥ هجرية . وكان شاعراً مفلقاً يقرن الى جرير والأخطل والفرزدق وكان غاليا في التشيع يقول بالرجعة والتناسخ . وقد نسبه الاغاني فذكر من جدوده امرء القيس البطريق وهذا يوهم ان أسرته كانت مسيحية قبل ان تدخل في الاسلام . وكان قصيراً دحداحاً وكان مع ذلك من اتيه الناس واذهبهم بنفسه . قال بعضهم :

« رأيت كثيرا يطوف بالبيت . فمن حدثك أنه يزيد عن ثلاثة أشبار فكذبه . وكان اذا دخل على عبد العزيز ابن مروان يقول له : طأطيء رأسك لا تصبه السقف . . »

وقد نشأ في البادية التي بين المدينة ومكة ومدح الخلفاء وجوزي منهم بالتحف والألطاف

وكانت صاحبته التي كان يشبب بها واكثر اشعاره فيها تدعى عزة . وقد روى القصاص قصته كما رووا سائر قصص المحبين في القرن الاول للهجرة مثل جميل وبثينة وقيس ولبنى بشيء من التزويق والتحشية حتى صار يشق على الناقد ان يستخلص الحب من العصافة . والعجب في هؤلاء الرواة انهم يسندون قصة خرافية ، لا يمكن ان تصدق ، الى اشخاص معروفين في التاريخ الاسلامي حتى ليعجب الانسان كيف وهم يزينون هذه الاباطيل بالاسانيد ويدعمونها بنسبتها الى الثقات — نقول كيف يوثق بهم في سائر ما نقلوه الينا من حوادث التاريخ ؟

وكان اول ما عرف كثير عزة انه مر بنسوة ومعه جلب غنم . فارسلن اليـه عزة وهي صغيرة . فقالت : يقلن لك النسوة : بعنا كبشا من هـذه الغنم وانسئنا بثمنه الى ان ترجع . فاعطاها كبشا واعجبته . فلما رجع جاءته امرأة منهن بدراهمه . فقال : واين الصبية التي اخذت مني الكبش ؟ قالت : وما تصنع بها ؟ هـذه دراهمك . قال : لا آخذ دراهمي الا ممن دفعت الكبش اليها . وخرج وهـو يقول :

قضى كل ذي دين فوفى غريمه   وعزة ممطـول معنى غريمها

واحد من ذلك الوقت يتعشقها ويتغزل بها يؤلف القصائد في وصفها ومدحها . وقد روت قسيمة الاسلمية قالت : « سارت علينا عزة في جماعة من قومهافسمعنابها . فاجتمعت جماعة من نساء الحاضر انا فيهن . فجئناها فرأينا امرأة حلوة حميراء نظيفة. فتصاءلنا لها. ومعنا نسوة كلهن لها عليهن فضل من الجمال والخلق الى ان تحدثت ساعة فاذا هي ابرع الناس واحلاهم حديثا فما فارقناها الا ولها علينا الفضل في اعيننا وما نرى في الدنيا امرأة تروقها جمالا وحسنا وحلاوة »

ولم يتزوجها كثير لتلك العادة التي اشرنا اليها وهي ان العرب كانت تستقبح تزويج بناتها لمن يشبب بهن . وكانت على الرغم من زواجها تلتقي خلسة بكثير فيطفيء نار شوقه ويؤلف القصائد يبترد بها من غليل الحب

روى كثير قال : « حججت سنة من السنين وحج زوج عزة بهـا ولم يعلم احد منا بصاحبه .فلما كنا ببعض الطريق امرها زوجها

بابتياع سمن تصلح به طعاما لأهل رفقته . فجعلت تدور الخيام خيمة خيمة حتى دخلت الي وهي لا تعلم أنها خيمتي » وعرفته واخذت منه السمن وعرف زوجها انها رأت كثيرا فامرها ان تعود اليه ونشتمه . فذهبت وقالت وهي تبكي : يا ابن الزانية . ثم انصرفا

ووضع كثير قصيدة عن هذا اللقاء قل فيها عن هدا الزوج :

يكلفها الخنزير شتمي وما بها هواني ولـكن للمليك استذلت

وبعض الرواة ينكر على كثير اخلاصه في حبه عزة فقد قال ابو خليفة : كان كثير مدعيا ولم يكن عاشقا وكان جميل صادق الصبابة والعشق . وروى الاغاني هذه القصة عنه :

ومما وجـدناه في أخباره ولم نسمعه من أحد أنه نظر إلى عزة ذات يوم وهي منتقبة تميس في مشيتها . فلم يعرفها كثير فاتبعها وقال : ياسيدتي قفي حتى اكلمك فأني لم ار مثلك قط . فمن انت ويحك ؟ قالت : ويحك وهل تركت عزة فيك بقية لأحد ؟ فقال : بأبي انت والله لو ان عزة امة لي لوهبتها لك. قالت : هل لك في المخالة ؛ قال : وكيف لي بذلك ؟

فسفرت عن وجهها ثم قالت : اغدراً يا فاسق وانك لهكذا ؟ فابلس ولم ينطق . وتأثر من هده الحادثة وقال فيها هذه الابيات :

الا ليتني قبل الذي قلت شيب لي * من السم خضخاض بماء الذرارح

اقت ولم تعلم عليّ خيانة * وكم طالب للربح ليس برابح

ومات كثير فما تخلفت امرأة بالمدينة عن جنازته وكن يندبن ويذكرن عزة في ندبهن

وعاشت عزة بعده مدة ويقال انه لما شاعت اشعار كثير وصار المغنون يتغنون بهـا وجرى ذكره وذكر عزة في سمر عظماء الدولة طلب عزة عبد الملك بن مروان الخليفة الاموي . فلمـا مثلت بين يديه وكانت عجوزاً قال لها « انت عزة كثير التي يقول فيها :

لعـزة نار ما تبوخ كأنهـا اذا ما رمقناها من البعد كوكب

فما الذي اعجبه منك ؟ »

فقالت عزة : « كلا يا أمير المؤمنين . فوالله لقـد كنت في عهده أحسن من النار في الليلة القرة »

فقال الخليفة : « هل تروين قول كثير فيك :

وقد زعمت اني تغيرت بعدها ومن ذا الذي يا عز لا يتغير ؟
تغير جسمي والخليقة كالتي عهدت ولم يخبر بسرك مخبر »

فقالت عزة : « ولكني اروي قوله :

كأني انادي صخرة حين اعرضت من الصم لو تمشي بها العصم زلت
صفوحا فمـا تلقاك الا بخيـلة فمن مل منها ذلك الوصل ملت »

قيس ولبنى

كان قيس بن ذريح من سكان بادية المدينة وكان رضيع الحسين ابن علي بن ابي طالب . وسبب علاقته بلبنى بنت الحباب انه ذهب لبعض حاجاته فمر بحيها وقد احتدم الحر . فاستسقى من احدى الخيام فبرزت اليه فتاة مديدة القامة بهية الطلعة عذبة الكلام . فناولته اداوة ماء. فلما روي وهمَّ بالذهاب قالت له : ألا تبرد وترتاح عندنا ؟ فاجابها. فمهدت له وطاء وقدمت اليه ما يحتاج اليه . وجاء أبوها فلما وجده رحب به ونحر له جزورا . فاقام عندهم بياض اليوم ثم انصرف وهو اشغف الناس بها . فجعل يكتم ذلك الى ان طما به الحب فعاد الى زيارتها وشكا اليها ما يجد من حبها فوجد عندها اضعاف ذلك فانصرف وهو في أشد الغبطة

ومضى الى ابيه وبث اليه حاله . فقال له : دع هذه وتزوج احدى بنات عمك . فلجأ الى امه فكان رأيها رأي ابيه . فذهب الى الحسين بن علي واخبره بقصته واستنجد به . فرثى له وتعهد ان يكفيه هذا الشأن . ومضى معه الى أبي لبنى فسأله في ذلك فأجابه بالطاعة وقال : يا ابن رسول الله لو ارسلت لكفيت بيد ان هذا من ابيه اليق كما هي عادات العرب

وذهب الحسين الى أبي قيس وحمله على تزويج ابنه من لبنى . وعاش المحبان معاً نحو عشر سنوات تبين منها ان لبنى عاقر . وكان والدا قيس يرغبان في نسله فعرضا عليه تطليقها والتزوج من اخرى تأتيه بما يطمعان فيه من الولد . فامتنع امتناعا يؤذن باستحالة ذلك

وأخذ يدافعها الى ان أقسم أبوه لا يكنه سقف او يطلق قيس لبنى. وكان قيس شديد البر بابيه شديد الحب للبنى فكان اذا اشتد الهجير خرج الى ابيه واظله واصطلى هو بالشمس فاذا جاء الظل تركه ودخل الى لبنى يبكي

واطرد هذا الحال مدة حتى قدر في النهاية ان يطلقها . فجاء أهلها وحملوها اليهم وزوجوها من آخر . ولم يبق لقيس سوى الحسرة والندم والتفجع . فكان يؤلف القصائد يذكر حبه لها وأيامه الماضية وما لقي من فراقها . فمن ذلك قوله :

يقولون لبنى فتنة كنت قبلها بخير فلا تندم عليها وطلق
تطاوعت اعدائي وعاصيت ناصحي واقررت عين الشامت المتملق
وددت وبيت الله اني عصيتهم وحملت في رضوانها كل موثق
وكلفت خوض البحر والبحر زاخر ابيت على اثباج موج مغرق
كأني أرى الناس المحبين بعدها عصارة ماء الحنظل المتفلق
فتنكر عيني بعدها كل منظر ويكره سمعي بعدها كل منطق

وسعى أبوه حتى زوجه من امرأة فزارية . ولكنه لما ادخلت عليه زوجته لم يروه هش اليها ولا دنا منها ولا خاطبها بحرف ولا نظر اليها وأقام على ذلك أياماً كثيرة . ثم أعلمهم أنه يريد الخروج الى قومه أياماً فأذنوا له في ذلك . فمضى لوجهه الى المدينة وكان له صديق من الانصار بها . فاتاه . فاعلمه الانصاري ان خبر تزويجه بلغ لبنى فغمها وقالت : انه لغدار ولقد كنت أمتنع من إجابة قومي الى التزويج فأنا الآن أجيبهم . وقد كان أبوها شكاقيساً

الى معاوية واعلمه تعرضـه لها بعد الطلاق . فكتب الى مروان بن الحكم يهدر دمه ان تعرض لها وأمر أباها أن يزوجها رجلا يعرف بخالد بن حلزة ... فزوجها أبوها منه ... فجزع قيس جزعاً شديداً وجعل ينشج أحر نشيج ويبكي أحر بكاء . ثم ركب من فوره حتى أتى محلة قومها وموضع خبائهـا فنزل عن راحلته وجعل يمرغ خده على ترابها

ومما قاله يرثي حاله ويعزي نفسه في ذلك الوقت :

ان تك لبنى قد أتى دون قربها ... حجاب منيع ما اليه سبيل
فان نسيم الجو يجمع بيننا ... ونبصر قرن الشمس حين تزول
وأرواحنا بالليل في الحي تلتقي ... ونعلم أيا بالنهار نقيل
وتجمعنا الأرض القرار وفوقنا ... سماء نرى فيها النجوم تجول

ومن ذلك قوله أيضاً :

فان تكن الدنيا بلبنى تقلبت ... عليّ فللدنيا بطون وأظهر
لقد كان فيها للأمانة موضع ... وللكف مرتاد وللعين منظر
وللحائم العطشان ري بريقها ... وللمرح المختال خمر ومسكر
كأني لها أرجوحة بين احبل ... اذا ذكرة منها على القلب تخطر

روى الأغاني أن قصائد قيس ذاعت واشتهرت وغنى في شعره الغريض ومعبد ومالك . فلم يبق شريف ولا وضيع إلا سمع بذلك فاطربه وحزن لقيس مما به . وجاء زوج لبني اليها فأنبها على ذلك وعاتبها وقال لها : قد فضحتني بذكرك . فغضبت وقالت : يا هـذا إني والله ما تزوجتك رغبة فيك ولا فيما عندك . . .

ولقد علمت اني كنت زوجته قبلك وانه اكره على طلاقي . ووالله ما قبلت التزويج حتى أهدر دمه إن الم بجينا . فخشيت أن يحمله ما يجد على المخاطرة فيقتل فتزوجتك وأمرك الآن اليك ففارقني فلا حاجة بي اليك . فأمسك عن جوابها وجعل يأتيها بجواري المدينة يغنينها بشعر قيس كيما يستصلحها بذلك فلا تزداد إلا تماديا وبعداً ولا تزال تبكي كلما سمعت شيئاً من ذلك أحر بكاء وأشجاه

ومن جيد شعر قيس قوله :

أتبكي على لبنى وأنت تركتها ... وكنت كآتي حتفه وهو طائع
فيا قلب صبراً واعترافاً بحبها ... ويا حبها قع بالذي أنت واقع
وياقلب خبرني اذا شطت النوى ... بلبنى وبانت عنك ما أنت صانع
اتصبر للبين المشت مع الجوى ... أم أنت امرؤ ناسي الحياة فجازع
كأن بلاد الله ما لم تكن بها ... وان كان فيها الناس وحش بلاقع
أقضي نهاري بالحديث وبالمنى ... ويجمعني والهم بالليل جامع
نهاري نهار الناس حتى اذا بدا ... لي الليل هزتني اليك المضاجع
لقد رسخت في القلب منك مودة ... كما رسخت في الراحتين الاصابع

قال الأغاني : وقد اختلف في آخر أمر قيس ولبنى فذكر أكثر الرواة أنهما ماتا على افتراقهما فمنهم من قال انه مات قبلها وبلغها ذلك فماتت أسفاً عليه ومنهم من قال بل ماتت قبله ومات بعدها أسفاً عليها ... قال أبو عمرو المدني :

ماتت لبنى فخرج قيس ومعه جماعة من اهله فوقف على قبرها فقال :

ماتت ليلى فموتها موتي　　هل تنفعن حسرتي على الفوت،
وسوف أبكي بكاء مكتئب　　قضى حياة وجداً على موت

ثم أكبَّ على القبر يبكي حتى اغمي عليه . فرفعه أهله الى منزله وهو لا يعقل فلم يزل عليلا لا يفيق ولا يجيب مكلما ثلاثاً حتى مات فدفن الى جنبها

وهكذا قضى قيس مضحياً بحبه لامرأته لبره لوالديه مؤثراً قرابة الماضي على قرابة المستقبل . وكان هذا منه خطلا عظيما جديراً بأن يأسى له مدى حياته . فان طبيعة العمران قد ركبت على ايثار الزوجة على الأم وعلى أن يهجر الزوج بيت والديه لكي ينشيء بيتاً جديداً وينعم بهناء الزوجية الذي لا يعدله ولا يقاربه هناء العيش مع الوالدين

صبيحة وابن أبي عامر

في منتصف القرن الرابع الهجري كان لخليفة في قرطبة بالاندلس رجلا من الامويين يدعى الحكم وكان من رعاة العلوم والاداب مغرماً بالموسيقى والغناء . حدث انه كان في أحد الايام بمكتبته فسمع غناء أشجاه وأثر في نفسه فسأل عن صاحب هذا الصوت فعرف انه لفتاة تدعى صبيحة فطلب حضورها وتحظاها وكانت على شيء من الأدب والتفنن في الحديث فعلقها وشغف بها وصار لا يقضي وقته إلا معها ورزق منها غلاماً في سنة ٣٥٢ ففرح به فرحاً شديداً حتى عقد زواجه عليها . وصارت هذه الجارية أميرة الاندلس وأم ولي العهد

وكان الحكم مسناً بينما كانت صبيحة فتاة لا تزال في مقتبل العمر وكانت تدري من شئون الدولة مثل زوجها وتمتاز عليه بنشاطها فكانت تتدخل في ادارة البلاد ويسمع لرأيها الخليفة . وحدث انها احتاجت الى كاتب لكي تستعين به في إدارة ضياع القصر الخاصة وفي سائر مراسلاتها وحساباتها مع موظفي القصر

فابتغى لها زوجها كاتباً من أولئك الكتبة الذين كانوا يحوطون القصر يكتبون العرائض للخليفة من المظلمين من الرعية . ووقع الاختيار على فتى يدعى محمد بن أبي عامر كان له حانوت بجانب القصر ينشيء فيه قصص الشكاوى وعرائض التظلم للخليفة

وكان هذا الفتى شاباً وسيما ذكياً نشيطاً وقد تردد الخليفة أولا في قبوله عندما رأى شبابه . وأخيراً وكل مهمة الاختيار الى زوجته فاختارته

وابتدأ كاتباً عند الاميرة ثم لم تمض عليه مدة حتى صار وكيلا لضياعها وارتقى من ذلك أيضاً حتى ضمت إلى إدارته ضياع ولي العهد . وكان ابن أبي عامر يطمع في أكثر من ذلك فاخذ يستميل الاميرة اليه ويرضي جميع من في القصر حتى أحبه الجميع وعينه الخليفة ناظراً لخزانة الدولة ثم عينه أيضاً مديراً مطلقاً لادارة سك النقود .وهكذا صار ابن أبي عامر أكبر رجل يشار اليه في الاندلس بعد الخليفة

وكانت الاميرة في خلال ذلك تلحظه برعايتها ولا تذكره عند الخليفة الا بما يسر حتى تفتح له قلبه واسبغ عليه نعمه . وحقيقة الامر ان هذا الرقي السريع الذي ناله ابن أبي عامر كان يرجع إلى حب الاميرة صبيحة له أكثر مما يعزى إلى نشاطه وبراعته

فقد أحبته الاميرة صبيحة وكلفت به حتى صارت تطلبه لتأدية الاعمال التافهة والمهمة وحتى صارت لا تطيق فرقته . وكانت تعشق فيه ريعان الشباب وصباحة الوجه وخفة الحركة وسائر ما يتسم به الشباب وكان يؤكد هذه الصفات في نظرها شيخوخة زوجها . وكان هو يطمعها في نفسه ويظهر لها الحب نفاقاً ومكراً طمعاً في الصعود الى أعلا المراتب التي كان يشتهيها . فكان اذا غاب عنها تواترت منه الهدايا وكان مما اهداها نموذجاً لقصرها « الزهراء » مصنوعا من فضة وقد نقشت جدرانه أبدع نقش . وقد حملت هذه الهدية باحتفال كبير اصطف فيه الجمهور على جوانب الشوارع وهو يعجب برؤية هذه التحفة الغريبة

وأخـذ الناس يتقولون ويتخرصون عن علاقة ابن أبي عامر بالاميرة صبيحة وكثرة ملازمته لها ويتساءلون من أين يأتي ابن أبي عامر بكل هذه الاموال ينفقها في بذل الهدايا إلى الاميرة . ولما كان أميناً على خزانة الدولة لم يكن بد من الشك في أنه يختلس الاموال منها . فسعوا عند الخليفة حتى جعلوه يطلب من ابن أبي عامر أن يقدم حساب خزانة الدولة وأمر أن يُنظر في مطابقة الحساب على ما فيها من الاموال

فكاد يسقط في يد ابن أبي عامر ويأفل نجمه في هذه الصدمة لأنه ينفق عن سعة من هذه الخزانة ولم يكن مرتبه يكفي انفاقه . ولـكن التوفيق كان لا يزال ملازمه اذ تذكر أحد أصدقائه المخلصين ابن خضير فقصد اليه وناشده الصداقة أن ينحيه من هذه الورطة . فدفع اليه ابن خضير جميع ما ينقص خزانة الدولة وعمل الحساب وطوبق على الموجود من الاموال فظهرت للخليفة امانته وأعاده إلى مركزه

ولـكن الخليفة مع ذلك وقع في نفسه شيء من اتصال ابن أبي عامر بالاميرة صبيحة وكثرة هداياه اليها . والشيوخ في مثل هذه الظروف يتوجسون من الشباب . ورأى رجال القصر الذين كانوا يحبون ابن أبي عامر ان الخليفة يوشك أن يجفوه ويقصيه فاوعزوا اليه أن يبرح قرطبة إلى اشبيلية ويسافر منها إلى مراكش حتى تصفو الحال بينه وبين الخليفة ثم يعود

فلما كانت سنة ٣٥٨ سافر إلى اشبيلية ثم برحها إلى مراكش

حيث بقي عاماً هدأت فيه العاصفة التي أثارها عليه أعداؤه في قرطبة فعاد في سنة ٣٥٩ والخليفة عنه راض وبقدره عارف . فقد رأى وقت غيابه مبلغ الارتباك الذي نال شئون الدولة على أيدي من قاموا بعمله وهم لم يحصلوا على دربته وتجاربه

وبقي في مركزه إلى سنة ٣٦٥ هـ. يتودد إلى الاميرة وهي تزداد به شغفاً وتخلص له الحب وهو يرمي من تودده اليها إلى مطامع بعيدة لم تكن تخطر ببال هذه المرأة . فقد كانت تنظر اليه بعين الهوى فيعميها الهوى عما كان يرمي اليه . وفي تلك السنة مرض الخليفة وأشفى على الهلاك . وكان ابنه هشام يبلغ من العمر ١١ عاماً وكان للخليفة أخ يدعى المغيرة وكان عمره نحو ٢٧ عاماً وكان هو أحق بالخلافة من هشام لأن تقاليد الشرع تشترط الخلافة للأرشد من الأسرة بخلاف الحال عند سائر الامم حيث يرتقي العرش الابن عن الاب كائناً ما كان عمره

وكان هـذا الخاطر يجول برأس الحكم وهو في مرض الموت فيزعجه . فافضى بسريرة نفسه إلى ابن أبي عامر . ولم يكن أسرع من أن يجمع ابن أبي عامر مجلساً من كبراء الدولة ووجوهها حملهم فيه على أن يقروا بولاية العهد لابنه هشاماً دون المغيرة

وكان ابن أبي عامر يرمي إلى مطامعه الشخصية في ذلك لأنه كان يعرف انه بعد وفاة الخليفة لا تجد الاميرة صبيحة من تعتمد عليه سواه في إدارة الدولة ما دام الخليفة لم يبلغ سن الرشد . فاذا صار وصياً اتسعت أمامه الفرص لكي يصبح هو نفسه خليفة

ومات الخليفة في سنة ٣٦٦ ه ولـكي يخلو الجو لابن أبي عامر ذهب في الحال إلى قصر المغيرة بثلة من الجنود واقتحم عليه القصر وخنقه

وهنا بدأت اطماعه تظهر وصارت الاميرة صبيحة يتمزق قلبها غيظاً من هذا الرجل الذي رفعتـه من أحط المراتب إلى أعلاها ومنحته قلبها وولاءها وائتمنته على مستقبل ابنها فانقلب عليها يبغي إنكار حق ابنها وازالته هو وأمه من الوجود

ومما كان يقرح في صدرها ويسهدها ويروعها ان ابن أبي عامر لم يكن ماكراً ذكياً فحسب بل كان أيضاً شجاعاً محبوباً عند جميع أفراد الامة . فقد كان يقود المسلمين بنفسه في حروبهم مع الافرنج وينتصر بحسن تدبيره واحكام مكايده عليهم حتى صار يسمونه المنصور . ونسي الناس اسمه القديم وصار لا يعرف الا بهذا الاسم

وأخذ المنصور في تدبير أمره لـكي يصل إلى الخلافة فأخذ يرسل الاوامر وينفذ الرسائل موقعة بتوقيعه دون ذكر للخليفة أو الاميرة . وشعرت الاميرة صبيحة بافاعيل هذا الولي القديم الذي قلبته المطامع فصار عدواً واخذت تحاربه سراً وكانت خزانة الدولة في القصر وبها نحو ستة ملايين دينار . فاخذت نحو ٨٠ الف دينار وضعتها في جرار ملوثة بالعسل كي تزيل عنها الشكوك والشبه وانفذتها إلى الموالين لها في الامصار والبلاد حتى يخرجوا على المنصور ويردوا السلطة إلى الخليفة

وعلم المنصور بذلك فاخذ عدداً كبيراً من أعيان الدولة وذهبوا

جميعاً خفية إلى الخليفة القاصر وجعلوه يقر ويوقع على انه عاجز عن حكم الدولة وانه ليس له سيطرة أو سلطان وانه يرضى بنقل الخزانة إلى خارج القصر . وخرج المنصور وقد حصل على هذه الوثيقة فحقق بذلك أطماعه القديمة وصار حاكم البلاد الحقيقي وذلك في سنة ٣٨٧ ھ

وذاع خبر هذه الوثيقة ففرح الناس لأنهم كانوا يحبون المنصور وكان أكثر ما يحببه اليهم شجاعته وفروسيته فقد حارب الافرنج ٥٢ مرة فاز عليهم فيها جميعاً وعاد منهم بالغنائم . ويحكى انه سمع عن أمير افرنجي حبس امرأة مسلمة فحاربه وهزمه حتى اجبره على أن يركع أمامه مستغفراً عن حبسه هذه المرأة التي اخرجت من سجنها وعوضت عما نالها فيه من الاذى

وفي سنة ٣٩٢ خرج لكي يقمع فتنة بالقرب من مدينة سليم في ولاية قشتالة . فاستبسل العصاة وصمدوا له حتى اشكل عليه الامر ورأى من جيشه تثاقلا . فلم يكن منه إلا أن شهر سيفه وتقدم بنفسه إلى صفوف العدو والتحم بها فابعثت نجدته الحماسة في قلوب جنوده فهبوا إلى الهجوم وانتصروا ولكنه جرح جراحات بليغة مات بعدها بأيام

فبكى عليه الاندلسيون وعاشت صبيحة بعده ست سنوات اذ ماتت سنة ٣٩٨ ورأت ابنها خليفة موقراً بعد ان كان صورة لا قيمة له في أيام حبيبها القديم ابن أبي عامر

ابن زيدون وولادة

عاشت دول الاسلام في الأندلس (اسبانيا) من سنة ٧١١ الى سنة ١٤٩٢ . وكان الاندلسيون عربا مسلمين من حيث اللغة والدين ولكنهم كانوا آريين من حيث الدم والعنصر ليس فيهم إلا القليل من الدم العربي

وقد زكت الفنون والعلوم فيها حتى كان الاوربيون ينزحون اليها للتعلم في مدارسها وظهر فيها عدد كبير من الفقهاء واللغويين والمؤرخين والشعراء والفلاسفة

ويبدو من استقراء تاريخ الاندلسيين أن النساء لم يكن يخضعن للحجاب تمام الخضوع كما كن يفعلن في الشرق . ولعل ذلك من أثر الجو البارد عليهن لأن الحجاب وليد الجو الحار . فقد ذكر المؤرخون ان النساء كن يقعدن في ميادين قرطبة وغيرها ويحترفن نسخ الكتب

وكانت الاندلس دولة واحدة في عصر خلفائها الامويين ثم تمزقت الدولة فصارت دويلات صغيرة على كل منها ملك او أمير لا يفتأ في شجار ونزاع مع جيرانه . وقد تتجزأ الدويلة عند موته امارات صغيرة يستبد على كل منها أمير ينعت نفسه بنعوت الملك والامارة حتى قال أحد شعراء الاندلس يصف هذه الدويلات :

مما يزهدني في أرض أندلس ... القاب معتضد فيها ومعتمد
أسماء مملكة في غير موضعها ... كالقط يحكي انتفاخا صولة الاسد

ففي هذا الزمن نشأ رجل يدعى أبا الوليد احمد ... بن زيدون .وُلد بقرطبة سنة ٣٩٤ وتوفي بأشبيلية سنة ٤٦٣ وقد اشتهر بحبه لامرأة تدعى ولادة من نسل الخلفاء الامويين . وكان كلاهما أديب فكانا يتراسلان ويؤلفان قصائد الغزل ويجتمعان سراً وعلانية

قال ابن نباتة عن ابن زيدون : «كان من أبناء الفقهاء المتعينين واشتغل بالأدب وفحص عن نكته ونقب عن دقائقه الى أن برع وبلغ من صناعتي النظم والنثر المبلغ الطائل . وانقطع الى أبي الوليد بن جهور أحد ملوك الطوائف المتغلبين بالاندلس فخف عليه وتمكن من دولته واشتهر ذكره وقدره واعتمد عليه في السفارة بينه وبين ملوك الاندلس فاعجب به القوم وتمنوا ميله اليهم لبراعته وحسن سيرته . واتفق أن ابن جهور نقم منه أمراً فحبسه . واستعطفه ابن زيدون برسائل عجيبة وقصائد بديعة فلم تنجح . فهرب واتصل بعباد بن محمد صاحب اشبيلية الملقب بالمعتضد فتلقاه بالقبول والاكرام وولاه وزارته وفوض اليه أمر مملكته وكان حسن التدبير تام الفضل محبباً الى الناس فصيح المنطق جداً »

وقال عن ولادة : «كانت بقرطبة إمرأة ظريفة من بنات خلفاء الغرب الامويين المنسوبين الى عبد الرحمن بن الحكم المعروف بالداخل من بني عبد الملك بن مروان تسمى ولادة . . . ابتذل حجابها بعد نكبة أبيها وقتله وتغلب ملوك الطوائف . . . ثم صارت تجالس للشعراء والكتاب وتعاشرهم وتحاضرهم ويتعشقها

الكبراء منهم . وكانت ذات خلق جميل وأدب غض ونوادر عجيبة ونظم جيد »

وانصل الحب بين ابن زيدون وولادة وكان كل منهما ينظم القصائد ويتغزل فيها بصاحبه . فمن ذلك ما قالته ولادة فيه :

ترقب اذا جن الظلام زيارتي   فاني رأيت الليل أكتم للسر
وبي منك ما لو كان بالبدر لم ينر   وبالليل لم يظلم وبالنجم لم يسر

وكانت كثيرة العبث والدعابة تضمن أشعارها اللطائف الحلوة ومن أقوالها عن نفسها وفيه جرأة عجيبة :

أنا والله أصلح للمعالي   وأمشي مشيتي وأتيه تيها
وامكن عاشقي من لثم ثغري   وأعطي قبلتي من يشتهيها

ولا تعرف ماهية الحب الذي كان بينها وبين من قيل انهم أحبوها هل كان عشقاً صحيحاً أم كان حباً أفلاطونياً بريئاً . ومن يقرأ سيرتها يرجح انها لم تعشق أحداً وقد يكون بعض محبيها قد عشقها وكلف بها ولكن ليس ما يدرينا هل نال وطره منها أم لا

فقد قال ابن نباتة : « وكان ابن زيدون كثير الشغف بها والميل اليها أكثر غزل شعره فيها وفي اسمها . ثم أن الوزير أبا عامر ابن عبدوس أيضا هام بها وكلف بعشرتها وكان قصدهم الظرف والأدب »

ومما يؤكد هذا الظن قول ابن زيدون :

وغرك من عهد ولادة   سراب تراءى وبرق ومض
هي الماء يأبى على قابض   ويمنع زبدته من مخض

ولما هجرت ابن زيدون وواصلت ابن عبدوس ولزمته قال ابن زيدون يتشفى وينتقم منهما :

عيرتمونا بان قد صار يخلفنا فيمن نحب وما في ذاك من عار
اكل شهي اصبنا من اطايبه بعضاً وبعضاً صفحنا عنه للفار

و « الفار » هو لقب ابن عبدوس

ومما يحكى عن ولادة انها مرت يوما بدار ابن عبدوس وهو جالس بالباب وحوله جماعة من أصحابه وأمامه بركة تتولد من مراحيض وأقذار فوقفت عليه وقالت :

أنت الخصيب وهذه مصر فتدفقا فكلاكما بحر

فلم يحر جوابا فمضت وحفظت هذه النادرة واشتغل بها الناس وهذا البيت لأبي نواس قاله عند ما جاء مصر يمدح واليها فتمثلت به ونقلته هذا النقل الحسن من المدح الى الهجاء

ودامت على ولاء ابن زيدون أكثر مدة أقامته بقرطبة . فلما فر الى اشبيلية تودد اليها ابن عبدوس فاتصل بينهما وداد ربما قد بلغ درجة الحب . وكان ابن عبدوس قبل فرار ابن زيدون يسعى في استمالتها اليه فلم يكن يقدر على ذلك . وبلغ خبر سعيه هذا مسامع ابن زيدون فالف رسالة اليه على لسان ولادة قرعه فيها وتهكم به حتى صار يحفظها الناس لبلاغتها وقوة لذعها وهي مشهورة تعرف باسم : « رسالة ابن زيدون » وهي مطبوعة في كتاب على حدة مشروحة بقلم ابن نباتة المصري

ولابن زيدون قصيدة عصماء نظمها في ولادة يتشوق اليها بعد

فراره الى اشبيلية ويذكر لها ما يعانيه من فراقها ويأسه من لقائها ويستديم عهدها . وقال فيها :

اضحى التنائي بديلا من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا
بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا شوقا اليكم ولا جفت مآقينا
يكاد حين تناجيكم ضمائرنا يقضي علينا الاسى لولا تأسينا
حالت لبينكم ايامنا فغدت سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا
أذ جانب العيش طلق من تألفنا ومورد اللهو صاف من تصافينا
واذ هصرنا غصون الانس دانية قطوفا فجنينا منه ما شينا
ليسق عهدكم عهد السرور فما كنتم لارواحنا الا رياحينا

أبيلار وهيلوئيز

لم يكتب في فرنسا عن عاشقين أكثر مما كتب عن ابيلار وهيلوئيز . فقد ذكرت قصتها بجملة صيغ مختصرة ومسهبة حالية بصنوف الحواشي وعارية منها . ولا يقرأ قصتها محب عاشق الا وينعزى بسيرتها وما قاساه كل منها من الآلام في سبيل الآخر . ولا يزال قبر ابيلار يزار في باريس في كل عام ينثر عليـه المحبون اكاليل الزهر ويترحمون عليه ويذكرون بلاء حبيبته واخلاصها وفداحة الآلام والتعس والاضطهاد التي كابدها حبيبها

ومن العبر التي يمكن القارىء ان يستخرجها من قصة هذين الحبيبين ان الحب مهما ارتفع ورق لا تزال جذوره سارية في حضيض الشهوة الجنسية فاذا اقتلعت الجذور فسرعان ما تندك فوقها دوحة الحب وقد جف ورقها وماتت أغصانها

ولد ابيلار في غرب فرنسا في سنة ١٠٧٩ وكان ابوه من الاشراف ولـكنه نزل عن حقوقه في ميرات الشرف لأخوته وعزم على ان يقضي أيامه في خدمة العلم . وشخص الى باريس حيث قضى مدة قصيرة في طلب العـلم صار بعدها استاذاً يجذب اليه بفصاحته وحسن بيانه جمهور الطلبة الباريسيين

وكان ذلك العصر اظلم عصور القرون المتوسطة فكان التعليم في يد الـكهنة جامداً لا يلين امام الفكر يعتمد على النقـل ويدور ويحور حول الدين . ولم يكن في الدين في ذلك الوقت فسحـة

للحرية الفكرية . وكان النظام الافدائي (الاقطاعي) منتشراً ليس للأقطار سلطة مركزية ينفذ كلامها وترعى أوامرها . بل كان الاشراف يحكمون كل منهم في اقليمه يبني حصنه وتنشأ المدينة أو القرية حوله يحتمون به عند ما تهيج الحرب ويغزو الشريف شريف آخر مجاور له . ولم تكن المسيحية أو القوانين المدنية قد هذبت بعد من اخلاق السكان فقد كان لا يزال الدم الالماني يغلي فيهم يطلب الغزو والنهب. فكانت الثارات لا تنقطع والهمجية نائية وكانت باريس اذا جنها الليل عاثت في شوارعها الذئاب . والخلاصة أن اوربا كانت في حال الفوضى الأدبية والاجتماعية والسياسية

وكان ابيلار يدعو في تعاليمه الى اخضاع التقاليد للعقل فهاج عليه لذلك زعماء القديم واضطهدوه حتى اضطر الى الهجرة من باريس وأخذ يضرب في آفاق فرنسا ويعلم كلما وجد أرضاً خصبة لبذوره .

وكان ابيلار عند عودته الى باريس في الخامسة والثلاثين من عمره وكان شريف الطلعة نشيط الجسم والذهن وكان يؤلف الشعر ويلحنه على الأنغام الموسيقية . وفي هذا الوقت عرف فتاة في الثامنة عشرة تدعى هيلوئيز . وكانت قد حملت بها امها سفاحا من أحد الأشراف وقد عنيت بتربيتها وتخريجها على أيدي مهرة المعلمين فكانت تعرف عدة لغات وتعشق الشعر والموسيقى مثل ابيلار . وكان يراها من وقت لآخر ويختلس النظرات منها في رواحها الى بيت عمها وغدوها منه حتى علقها وهام بها وصار حب

العلم الذي كان قد تملكه الى هـذا الوقت شيئاً بارداً ميتاً بجانب حرقة هذا الحب الجديد

واحتال على عمها لـكي يصل اليها حتى عينه معلماً لهـا يواليها بالدروس ويشرف على تعليمها . فصـار يزورها كل يوم ويتدرج معها من الدروس الجافة من العبرانية والاغريقية الى السير والتاريخ يحكي لهـا تجاربه الماضية وما قيل من الأشعار وما جد في الموسيق ويخرج من ذلك الى ما يمس احساسـها من عواطفه حتى بلغ قلبها فرأى فيه مثل ما عنده . فـكانا يقعدان الى المائدة وامام كل منهما كتاب مفتوح يتعللان به وكلاهما مشغول بصاحبه حتى اذا تلاق النظران شاع الخجل في كل منهما فيعودان الى الكتاب وقد عراهما الارتباك والحياء . ثم تمس اليد اليد وكأن ذلك قد حدث سـهواً فتحصل الرجفة تؤذن ببزوغ الحب او تخرج الزفرات من صدريهما على غير وعي منهما فيعرف منهـا ابيلار كيف سرى في جسـمها تيار الحب

ولم يمض عليهما طويل زمن حتى تصارحا بالحب واسـلمت هيلوئيز نفسها وجسمها اليه . وكثرت ملازمة ابيلار لهـا حتى لحظ الناس ذلك واخذوا يقولون . وحدث ان الف ابيلار مقطوعـة غرامية عنها فوقعت في ايدي اعدائهـا الذين بادروا الى عمها بها . فهاج هذا هائج عمها الذي لم يكن قد دخله أي شك قبلا فيهما وامر بطرده من البيت ومنع هيلوئيز من لقائه

ولـكن طرق المحبين كثيرة . فقد اخذت هيلوئيز تخرج سراً

الى بيت تقطنه اخت ابيلار فيلتقيان هناك . ولم تمض مدة حتى وضعت هيلوئيز ولداً ذكراً سمته او بالاحرى سماه ابوه اسطرلاب وهذه اللفظة اسم آلة كان يستعملها قدماء الفلكيين

وعرف عمها خبر هـذا الولد فأراد ان ينتقم من هـذا الرجل الذي ائتمنه على بنت اخيه فخانها في عرضها ونضح البيت فضيحة ابدية . واخيراً وجد ان اسلم الاعمال عاقبة أن يقترنا فطلب اليهما ذلك . وكان ابيلار يرغب في أن يعيش عزبا لأنه كان ينوي ان يسلك في سلك الكهانة . فرضي بالزواج ولكنه اشترط ان يكون سراً لا يذاع . ولكن هيلوئيز ابت ان تكون زوجته خشية ان يذاع خبرهذا الزواج فلا يرتقي ابيلار في الكنيسة وجعلت تعارض عمها وحبيبها ومما يؤثر عنها قولها : « اني افضل ان اكون خليلتك عن ان اكون روجة امبراطور »

ولكنها بعد ان بذلت كرامتها وعرضها فداء لحبيبها رضيت بعد الالحاح ان تتزوج منه . وتم الزواج سراً وعاد ابيلار الى محاضراته العلمية . وعاد الناس الى التقول والتخرص فكانوا كلما التقوا بهما عيروه ونلبوه . فساء هـذا عمها حتى باح بالسر واعلن انهما متزوجان . فذهبوا يسألون هيلوئيز فقالت : « لست زوجته وما اقترن بي قط وإنما يقول عمي ذلك ضناً بسمعته »

فتحدوها الى اليمين واحضروا لها الأنجيل فلم تتأخر عن القسم بأنه ليس بينهـا وبين ابيلار رواج ما . وبلغ ذلك عمها فأخذ يحرق الارم غيظاً وحنقاً وعاد فمنع الحبيبين من اللقاء . ففرت منه الى دير

قريب ولبست مسوح الراهبة فكان ابيلار يلقاها هناك وكل منهما يبث الآخر سريرة نفسه

وهنا ينبغي ان نتريث قليلا المفاضلة بين الاثنين . فليس شك في ان هيلوئيز بذلت من نفسها اكثر مما بذل ابيلار . فقد سلمت نفسها وجسمها اليه قبل الزواج . ثم رفضت ان تتزوج به عندما وجدت ان زواجه يؤخر ارتقاءه في المناصب العليا . ثم انكرت زواجها ورضيت ان يقال عنها انها خليلة

كل ذلك فعلته هذه الفتاة النبيلة مضحية بعرضها وكرامتها وسمعتها لأجل حبيبها . واما هو فقد اصر ان يكون الزواج سراً مكتوماً حتى لا يمنعه هذا عن الارتقاء الى المناصب العليا فلم يكن الحب في نظره يساوي الرفعة والشهرة بالتفوق على الاقران

وعرف العم ان ابيلار يلقاها في الدير وانه مصر على اخفاء امر الزواج فأراد ان ينتقم انتقاماً سافلا تجبن دونه الأبالسة . فاكترى جماعة رجال طغام ذهبوا الى غرفته وهو نائم في جوف الليل ورشوا خادمه ففتح لهم . وكانوا أربعة قبض ثلاثة منهم على ابيلار وأوثقوه وأخرج الرابع موسى جبهه بها . ثم تركوه غارقا في دمه وهو يملأ الفضاء بصراخه وبكائه

وشاع خبر هذه الجناية السافلة في باريس فما جاء الصباح حتى هرع الناس الى البيت وكانت النساء يبكين كأنهن فقدن ازواجهن ولكن ابيلار وان فقد ذكورته فانه لم يفقد رجولته فما كاد أن يلتئم جرحه حتى استأجر هو الآخر بعضاً من السفلة تعقبوا الخادم

وأحد الجانين فجبوهما . وتقدمت القضية لمحكمة كنسية فعاقبت عم الفتاة بأن استصفت جميع أملاكه

اما هيلوئيز فقد كانت نكبتها تجل عن الوصف . فان حبيبها لما فقد ذكورته فقد أيضاً حبه. وهذا ما يجعلنا نعتقد انه مهما ارتفع الحب ورق واوهم صاحبه انه تجرد عن الشهوة فلا يزال اساسه في الشهوة الحيوانية . فلما التقت به حبيبته طلب اليها ان تترك الدنيا وتدخل الى احد الاديار وصرح لها بأنه لا يثق بأمانتها . فكان هذا التصريح اقصى ما صدمت به الفتاة في حياتها . وقد قالت بعد ذلك في خطاب اليه : « يعلم الله اني ما كنت اتردد ان اسبقك او الحقك الى جهنم لو امرتني بذلك »

ومع هذه الصدمة اطاعت امره وذهبت الى الدير ودخل هو ديراً آخر وصار راهباً

واكب ابيلار من ذلك الوقت على خدمة العلم دون ان يشغله شاغل الحب السابق . فجعل يكتب ويعلم وفي كل ذلك يفضل سلطان العقل على سلطان الدين . ولكن الزمن لم يكن يواتيه على هذه الجرأة . وانعقد مجلس لمحاكمته انتهى بأن امر باحراق كتبه وهبَّ الرهبان الذين كانوا معه في الدير وكان هو رئيسهم الى الثورة عليه حتى طردوه

وخرج ابيلار من الدير وهو كسير الخاطر متهور النفس فبنى لنفسه خصاً من القصب والطين في سهل منفرد . ولكن تلاميذه سمعوا به وسرعان ما رحلوا اليه وبنوا حوله خصاصاً وصاروا

يتحلقون حوله كل يوم يتلقون منه دروسه وآراءه في العلم والدين . وبنى بعد ذلك بناء من الخشب والحجر سماه الفارقليط لا تزال رسومه وبعض اطلاله باقية للآن

وبعد مدة اصدر ابيلار كتابا دعاه : « تاريخ ما نزل بي من المصائب »

فلما اطلعت عليه هيلوئيز ارسلت اليه خطابات متواترة تبثه حبها وولاءها كأنها في أول سني حبها . وهذه الخطابات من اجمل واروع ما كتبها عاشق . فقد ارسلت اليه تسأله ان يدلها على الطريق الى الله كما دلها قبلا على طريق اللذة والحب . فاجابها اجابة القسيس للراهبة ويكفي ان نذكر السطر الاول من خطابه لندل عليه « من ابيلار الاخ في المسيح الى هيلوئيز الاخت في المسيح»

وقد وجدت هيلوئيز من جفاء عبارته ما اثار في نفسها الغضب واشعرها ان حبيبها القديم قد نسيها فكتبت اليه تقول :

« حبيبي . كيف استطعت ان تعبر عن هذه الافكار وكيف اهتديت الى الفاظ تؤديها ؟ ليتني اجرؤ على ان اقول ان الله يقسو عليّ ؛ الا اني اشهد اني اتعس مخلوق . لقد كانت ايام حبنا لذيذة حلوة حتى لا أقدر الآن ان ارد ذكراها عني . فاينما ذهبت تتخيل لي هذه الذكرى وتشعل فيّ الرغبة القديمة »

ولكن ابيلار كان يحس في نفسه موت العاطفة الجنسية فكان يكتب اليها بلهجة المتباعد المتعفف المتزهد فيأخذ في شرح الرهبانية واللاهوت والآداب وما اليها من الاشياء التي لا تلبي نداء العاطفة

التي كانت تختلج في صدر هيلوئيز . فكانت تحتج وتثور على هذا الجفاء بلا جدوى وأخيراً ادركت ما ألمّ بصاحبها . فهدأت ثائرتها واطمأنت الى حالها ونكبتها

وحكم على ابيلار بعقوبة كنسية لأقوال اخذت عليه . فسافر الى رومية لكي يقضي حدها فمات في الطريق . وحملت جثته الى الفارقليط . وعاشت هيلوئيز بعده ٢٢ سنة ترعى قبره وتحفظ عهده ثم ماتت فدفنت الى جانبه واختلطت عظامها بعظامه كما كانت تهوى .ونقلت رفاتهما الى باريس حيث هما الآن

شارل الثاني ملك انجلترا

حاول شارل الأول ملك انجلترا أن يلغي الدستور ويستبد بالأمر وحده . فطرد أعضاء البرلمان وركب رأسه في حكم البلاد . فأبى الانجليز أن يذعنوا لحكمه ورفضوا أولا دفع الضرائب حتى اختلت حكومته . ثم تألبوا عليه وألفوا الجيش لمكافحته. ثم هزموه وبعد ذلك عقدوا له محكمة حكمت بقطع رأسه . وكان هذا جزاء الملك الخائن الذي يضع ارادته فوق مشيئة امته وهو الفرد والجزء وهي الجماعة والكل

ومن ذلك الوقت فهم ملوك انجلترا هذا الدرس القاسي ونقشوه على قلوبهم فما اصطدمت بعد ذلك الملوكية مع الديمقراطية

وكان شارل الثاني ابن شارل الاول . وقد كان يرافق أباه في الكفاح الرائع بين سلطة الأمه وسلطة الملك وهو بعد صبي لا يتجاوز سنه الثانيه عشرة . فلما بانت الهزيمة على أنصار الملك الذي وقع أسيراً في أيدي أعدائه فر الصبي بمعونة أصدقاء والده الى فرنسا

وقد كانت امه فرنسية ونشأ هو يجيد اللغة الفرنسية فلم تشق عليه المعيشة في هذا الوطن الثاني . وكان لويس الرابع عشر متبوئاً في ذلك الوقت عرش فرنسا وكان يعرف أن الأمة الانجليزية متى ذهبت عنها ذكرى هذه الخصومة بينها وبين ملكها لا بد عائدة الى الملوكية وستطلب ملكها الشرعي وتبوئه عرش آبائه . فرتب

لذلك معاشاً سنوياً لهذا المليك الطريد وأسكنه في قصر وحاطه بحاشية بحيث لم يكن شارل يشعر بأنه منفي غريب عن بلاده

واجتهد شارل في أن ينجو أبوه من القتل وصار يكاتب أعضاء البرلمان في ذلك بل بلغ من شدة رغبته في تخليص أبيه أن أرسل اليهم ورقة بيضاء موقعة باسمه طالب اليهم فيها أن يضعوا جميع شروطهم وينزلوا عن قتل الملك

فلما أخفق في ذلك هيأ أسطولا به ١٨ بارجة وصار يغزو به الشواطىء الانجليزية . ثم ذهب الى اسكوتلانده وتوج ملكا في سنة ١٦٥١ وانحدر الى انجلترا ولكن كرومويل كان في اوج قوته فتقاد وصمد له وهزمه . ففر ناجياً بنفسه الى فرنسا . وعرف شارل من ذلك الوقت أنه يجب عليه أن ينتظر حتى يموت كرومويل ويعود عندئذ الى عرشه

وكانت ملكة البرتغال امرأة حصيفة بصيرة بالسياسة الاوربية وكانت بلادها في ذلك الوقت في الصف الأول بين الدول الكبرى . وكانت تعرف مثل لويس الرابع عشر أن شارل سيعود الى عرشه وتصير لكلمته تلك المكانة العظيمة في المفاوضات السياسية . وكنت البرتغال تسعى في الاهتداء الى حليف يعينها على جارتها اسبانيا . فعزمت على أن تزوج ابنتها لشارل وتغريه في الوقت نفسه بمليون جنيه

وكانت ابنتها قليلة الجسم سوداء الشعر وقد تربت تربية الأديار وكانت فتاة ساذجة متدينة لا تعرف سوى العبادة وأعمال

البيت . ولـكن شارل كان يقدر المليون جنيه حق قدرها في ذلك الوقت فلم يرفض هذا الزواج

وكان الانجليز قد ضجروا من حكم كرومويل الذي ابطرته القوة فطغا . وارتكب هـو نفسه الجناية التي قتل من اجلها شارل الاول اذ طرد اعضاء البرلمـان واستبد بالحـكم . فلما مات تنفس الناس الصعداء وطلبـوا شارل . فدخل الى لندن بين الموسيقى والطبول تخفق فوقه الرايات . وكان فرح الناس عظيما حتى يقال انه مات كثيرون لشدة ما اثر فيهم الطرب بعد ان ثابت الملوكـية الى عرشها

وانعقد البرلمـان وقرر اعتماد مبلغ سبعين الف جنيه لاقامة تمثال للملك المقتول شـارل الاول . ولـكن شـارل الثاني لم يكن حريصاً على ذكرى والده فاخذ المبلغ وانفقه في ملذاته الشخصية

وكان شارل شهواني المزاج لا يفتأ يبحث عن امرأة جديدة مكان أخرى مملولة . وكان له جملة عشيقات قد تسمن حبه . وعرف فيه لويس الرابع عشر ملك فرنسا هـذه الخصلة فأرسل اليه امرأة جميلة تتعشقه وتكون في الوقت نفسه عيناً عليه . وكانت تدعى لويز دوكيروآي وقد رزقت منه بولد صار فيما بعد دوق لونوكس

وكانت زوجته كاترين تلك الفتاة البرتغالية الساذجـة ترى هؤلاء النساء حوله وتسمع ما كان يقال من انهن قـد رزقن منه أولاداً فتحترق غيظا وتعاتب زوجها فيردها خائبة ويقول لها ان الملـكة يجب ان تسكت على أشياء قد لا تسكت عليهـا الزوجة

العادية . وكانت كاترين في تواضع وتدين وسذاجة بحيث كانت تجتذب اليها قلب الملك أحيانا حتى لقد دافع عنها ووقف الى جانبها عند ما اخذ الرعاع من الانجليز البروتستانت يتصايحون عن طرد هذه الفتاة الكاثوليكية

والى هنا كان حب شارل الثاني من النوع الشهواني لم يثبت على ولاء لواحدة من النساء اللاتي عرفهن . وليس شك في انه كان يحب زوجته . ولكن حبه لها كان عطفاً وحناناً أشبه بما عند الوالد لولده منه بما عند المحب لحبيبته

وفي احدى الليالي خرج متنكراً وذهب الى أحد التياترات فرأى فتاة جميلة . فاخذ في التحدث اليها . وبينما هما في ذلك اذا بصاحب الفتاة وهو رجل غني قد اقبل . فخرج الجميع الى مطعم قريب وتناولوا بعض الطعام وشربوا بعض القداح من الجعة . وأراد الملك ان يدفع ثمن الطعام والشراب فلم يجد في جيبه شيئاً . واخذت الفتاة تضحك من افلاسه واملاقه وتطفله على الناس لكي يسكروه ويطعموه

وكانت هذه الفتاة تدعى نل جوين عاشت طول حياتها وهي لا تعرف لها اباً أو اماً نشأت على الدعارة تكري نفسها لمن شاء لم تعرف قط معنى الطهارة . فقد كان يعيش في أيامها عصابات من الاشرار يختطفون الفتيات ويؤجرونهن وكانت هي احدى هؤلاء البائسات . فكانت تنتقل من صاحب يملها الى آخر يستطرفها ثم يملها وهكذا

فلما كان اليوم الثاني من لقائها بالملك استدعيت الى القصر وباح لها شارل بحبه . فعاشت من ذلك الوقت في كنفه واخلصت له الحب اخلاصاً لم يجد ما يماثله فيمن عرفهن . فقد كان همّ كل امرأة عرفها ان تثري وتثقل نفسها بالجواهر وتقتني القصور عدا هذه الفتاة فانها على الرغم من انها عاشت طول حياتهـا بين الفجرة من اللصوص والغواة كانت لا تزال نفسها سليمة ساذجة فلم تتطلع الى اقتناء الاموال من الملك بل كانت لا تهتم الا بمصلحته

ويحكى أن شارل جلس يوماً وأخذ يتضجر من ان الناس غير راضين عن حكمه . فقالت له نل جوين على الفور : « اطرد نساءك وأنظر في الواجبات التي تجب على الملك وهم يحبونك »

ومما يؤثر عنها انها كانت السبب في انشاء مستشفى كلزي . فقـد رأت ان الجنود الذين قتلوا في سبيل شارل الثاني وأبيـه المقتول شارل الاول قد اسنوا وعجزوا عن كسب معاشهم فاسست لهم هذا المستشفى يأوون اليه

وربمـا كان أكبر شاهد على فضل هذه المرأة التي فقـدت طهارتها الجسمية ولكنها لم تفقد طهارتها الروحية أنها عند وفاة شارل لم تكن تملك شيئاً حتى يقال ان الملك وهو يحتضر والناس حوله وقوف أخذ يعتذر اليهم لانه اتعبهم لطول ما يقضي من الوقت في الاحتضار ثم صاح وهو في السكرات الاخيرة :

« ارجو ألا تدعوا نل المسكينة تموت جوعاً »

ماري ملكة اسكوتلاندة

بين كليوبطرة وماري شبه عظيم من جملة وجوه كلتاهما كانت ملكة وكانت الفتنة في جمال كل منهما ناشئة عن الشخصية لا عن قسامة الوجه ووسامة الاعضاء . فكان أول ما يراهما انسان لا يجد فيهما شيئاً من الجمال فاذا ما أخذتا في الحديث رأى من الخفة والرشاقة ما يجذبه اليهما ويجعله يعترف بفتنتهما . وتتشابهان أيضاً من حيث ان كلاً منهما لقيت حتفها عن سبيل الحب . وقد كانت حياتهما موضوع الشعراء والقصصيين والدراميين

كانت ماري ابنة ملك اسكوتلاندة جيمس الخامس وكانت أمها من نبيلات اللورين الواقعة بين فرنسا والمانيا وكانت امرأة ضخمة طوالا يزيد ارتفاعها عن ست أقدام . وكان ملك انجلترا يحاول ان ينال يدها ويبعث اليها بالسفراء لكي تقبل الزواج به وكان يقول : « أنا رجل ضخم أحب أن اتزوج امرأة ضخمة مثلي »

ولكن ملك اسكوتلاندة كان اذكى منه واركن فطرة فقد عرف ان العامل الشخصي في الزواج هو أهم العوامل ولذلك عمد الى اجتذابها بنفسه ورحل اليها وأخذ في تعشقها حتى رضيته زوجاً وتزوجته . وجاءت ابنتهما ماري مديدة القامة بيضاء تكاد تكون شاحبة حتى كان يقال عند ما شبت وأزوجت أنها كانت عند ما تشرب النبيذ يتراءى للناظر بلونه الاشهب خلال عنقها الصافي البشرة . ومات أبوها في السنة الاولى من عمرها فصارت بذلك

ملكة اسكوتلاندة . وكانت فرنسا في ذلك الوقت بلاد الحضارة يرسل اشراف المانيا وانجلترا ابناءهم اليها للتعلم فيها والتأدب بآداب باريس والحذق في معرفة عوائد الاشراف والطبقات الراقية . فما كادت ماري تشب حتى أرسلت الى قصر ملك فرنسا وكان حاكم فرنسا الحقيقي روجته الايطالية كاترين دومديشي . وكان البلاط الفرنسي في ذلك الوقت شبكة عاتية من الدسائس السياسية ومسارقات الغرام والتأنق في اشباع الشهوات الجنسية . ونشأت ماري في هذا الوسط فاصطبغت اخلاقها به وعرفت منه شحرة الخير والشر

وكانت ذكية الطبع فلم يمض عليها وقت طويل حتى حذقت الفرنسية والايطالية واللاتينية . وتدربت على الفروسية وتعلمت الرسم والنظم . ثم حدث لها ما عجل في اذكاء قريحتها فقد صارت روجة لولي عهد فرنسا ولما تبلغ السابعة عشرة . ولم يكن زواجها به عن حب وانما روعيت فيه المصلحة . فقد كانت هي ملكة اسكوتلاندة وكان هو ملك فرنسا وكانت اليصابات ملكة انجلترا عانساً لم تتزوج فكان عرش انجلترا لا بد مقضياً عليه بأن يؤول الى السلالة الحاكمة في اسكوتلاندة للنسب القديم بين ملوك انجلترا واسكوتلاندة . فكانت النية من هذا الرواج ان تجمع الاقطار الثلاثة في مملكة واحدة يحكمها هدان الزوجان

كانت ماري عند زواجها في السادسة عشرة وكان زوجها في الخامسة عشرة ولم يكن بينهما حب بل كانت تحتقر زوجها ولا

تبالي ان تظهر ذلك . فقد كان عليلا يقضي ليله في التأوه وكان في اذنه خراج يقض مضاجعه ولم يكمل عامه الاول حتى مات . ولم تكن علاقتها مدة حياة زوجها بحماتها حسنة فقد كان كلتاهما تبغي الاستئثار بالحكم في فرنسا وكانت ماري تعيرها بأنها « ابنة صيدلي »

فلما مات زوجها زالت سلطتها عن فرنسا وعزمت على ان ترحل الى اسكوتلاندة حيث عرشها الشرعي الذي ورثته عن أبيها وكان يستغرق لبها الآن عاطفتان قويتان احداهما الطموح الى القوة والسيادة بحكم هذا الدم الذي ورثته عن سلالة ممتدة من الملوك . والاخرى عاطفة الحب التي هاجها الوسط واثارها الزواج دون ان تجد فيه ما يرضيها . ويحكى انه عند ما بلغت الثامنة عشرة أهتاجت عواطفها اهتياجا عظيما فكانت تخفف من شدتها بتقبيل الاطفال ومعانقة الفتيات وتأذن للشعراء في انشادها وصف محاسنها وتقبيل يديها

وكانت كاثوليكية المذهب في حين ان رعاياها الاسكوتلانديين كانوا من غلاة البروتستانتية . فلما نزلت ارض بلادها استقبلها الناس بفتور وبخاصة لأنها كانت محوطة بحاسية من الاجانب الذين كانوا يخدمونها وهي في فرنسا وكان رعاياها يخشون منها ويتوجسون خيفة ان تغير المذهب الرسمي الذي اختارته البلاد

وكانت عقب وفاة زوجها قد عرفت أحد نبلاء بلادها اللورد بوثول. وكان اكبر منها قليلا في السن زارها وهي في فرنسا فشعرت

لأول رؤيتــه بتلك الهزة التي تختلج الجسم وتنبيء بانبثاق الحب الصحيح بين طبيعتين مؤتلفتين . وقد وصف الاديب المعـروف موريس هيولت هذا اللورد بقوله :

« كان رجـلاً ،مراحاً يتوهج بالدم عريض الـكتفين مربع الفكين وكانت ضحكته عاجلة عالية يحسب من يسمعها انه لن يكون غم حيث تكون هذه الضحكة . وكان يتفنى في اللباس والمركب ومصاحبة الاخوان له على الدوام سيماء الشجعان . وكان لون وجهه يدل على حبه الطعام والـكنه كان يدل أيضاً على وفور العافيـة والقوة . . وكانت ارنبة أنفـه قد هشمت ولـكن قلّ من كان يلحظ ذلك أو يفكر في العربدة التي أدت الى هذا الهشم . وكانت صراحته وعدم اكترائه لشيء من اكبر أسباب فتنته »

وكان الى شجاعته وفتوته وحبه النساء وتسرعـه الى تجريد سيفه عند الغضب يعشق الآداب يقرأ الايطالية والفرنسية ويكتب اللاتينية ويقتني الـكتب . فـكان شخصه لذلك جماع ما تطلبـه ملـكة متوتبة العواطف من عشيقها . ولذلك اقبلت عليـه ماري ومحضته حبها فلازمها وصار أحد بطانتها

وكانت كراهية الاسكوتلانديين حافزاً لها على ان تسير سيرة العدل معهم فلم تمض سنوات حتى عرف لها رعاياها عدلها فاحبوها وكان جون نوكس نفسه وهو من غلاة الشيعة البروتستانتية يضطر الى الاشارة اليها باللطف والادب

وارادت ماري ان تبالغ في اجتذاب عطف رعيتها عليهـا

فتزوجت من ابن عمها البروتستني اللورد دارنلي . واعتزمت من ذلك الوقت ان تصرم حبل صلتها السابقة باللورد بوثول حتى طلبت اليه ان يتزوج . واطاع اللورد بوثول نصيحتها وتزوج بالفعل

ولكن ماري كانت مخطئة لم تصدق الحدس عن دخيلة قلبها ولم تبحث البحث الكافي لمعرفة حقيقة خلق زوجها وابن عمها اللورد دارنلي. فقد دخل عليها في اولى ليالي زواجها وهو سكران لا يعي . وكان خلواً من العقل قد حشي رأسه بالغرور وقلبه بالانانية وكان يعتقد ان الملكة قد ترامت عليه لكي تتزوجه افتتاناً به . فكان يتيه عليها ويبرمها

وحدث ان خرج عليها بعض لورداتها عقب زواجها . فجندت بضعة من الرعاع وقامت على رأسهم وسارت نحو هؤلاء الخارجين فاحصتهم ومزقت شملهم وعادت منصورة الى عاصمة البلاد . فعلت ذلك كله دون ان يشاركها زوجها الذي احجم جبناً ونذالة

فاستوثق لها الملك بعض الاستيثاق بهذا النصر حتى تراخت له وعادت الى سيرتها الأولى في العشق . فاستدعت اللورد بوثول وأخذت معه في ارتشاف كؤوس الغرام وصارت لا تبالي بما يتقول الناس عنها حتى بلغ بها تحدي العرف والعادة ان صارت تلبس ملابس الرجال . وبلغ سوء الظن بها من أحد شعرائها الفرنسيين ان اعتقد لكثرة ما رأى من استهتارها ومزاحها معه أنها تحبه وتؤثره على سواه فانسرق مرة الى سريرها ونام تحته . فلما عرفت فعلته اخرج بالجر والعنف . وحدث مرة أخرى ان دخل الى فراشها

ونام تحت لحافها فاخرج أيضاً وحكم عليه بالموت . فلما وقف على النطع لم يزد على ان قال :

« ويحك أيتها الملكة القاسية . ها انا ذا اموت لاجلك »

وكان عندها شاعر ايطالي آخر كان ينظم لها المديح ومقطعات الغزل فتجيبه بمثلها . واغلب الظن انه لم يكن بينهما سوى الاعجاب واللذة الفكرية من تقارض النظم ولكن الغيرة كانت تأكل زوجها حتى حدث بينما كانت جالسة الى المائدة تتعشى هي وشاعرها الايطالي هذا ، واسمه ريتسيو ، ان دخل عليها اللورد دارنلي زوجها وجرد خنجره وطعنه جملة طعنات كانت القاضية عليه

ومن هذا الوقت صارت ماري تكره زوجها وكانت تداريه وتياسره لأنها كانت حاملا وتخشى ان لا يعترف بالطفل الذي كانت على وشك ان تلده وقد صار بعد ذلك ملكا على انجلترا واسكوتلانده باسم جيمس الاول

وكان اللورد بوتول يلازمها لا تطيق فراقه . ويؤثر عنها قولها عنه وهي في سورة الغرام : « ليس كبيراً عليّ ان أفقد عرش اسكونلاندة وعرش انجلترا معاً ما دام هو لي »

وقد كتبت اليه في هذه الفترة جملة خطابات تتوهج بالشهوة وتنبض باللذة . ولم تكن تخشى عاراً أو فضيحة فكانت تفضي الى حبيبها بدخيلة سريرتها وتظهره على سويداء قلبها

وحدث بعد ذلك أن قتل زوجها في حادثة تفجر بارود لم يعرف الجاني فيها ثم عقب ذلك ان ماتت زوجة اللورد بوتول موتاً اثار

لشكوك . ثم لم يمض على موتها قليل حتى تزوج زوجها من ماري

ولكن هذا الزواج لم يدم طويلا فان الاسكوتلانديين هاجوا لهاتين الجنايتين . فقد خرجا مرة في ادنبرج فسارت مركبتهما بين نعيق العامة وكانت النساء تطلق اوقح الاسماء على الملكة ونصبت لها رايات كبيرة رسمت فيها صورة دارنلي وهو يقتل

ثم ثار عليها النبلاء فقادت اليهم جموعاً من الرعاع ممن اختارتهم لخدمتها ولكنها انهزمت أمام جيوش النبلاء المنظمة وقبض عليها واعتقلت في أحد الاطام حيث ولدت توأمين هما ثمرة زواجها باللورد بوثول

وقد قلنا انه كان لشخصيتها فتنة لا يقوى أحد على مقاومتها. وهذا ما افادها في معتقلها فقد اغرت الحرس واغوتهم حتى اطلقوا سبيلها ومهدوا لها الفرار . وخرجت متنكرة كأنها غسالة ولكن رقة يديها وجمال أناملها نمَّا عليها فقبض عليها واعيدت . ولكنها عادت ثانية وفرت يحرسها هذه المرة خمسون فارساً وواصلت السير حتى دخلت الحدود الانجليزية . ولكنها لسوء حظها كانت قد استجارت من الرمضاء بالنار . فقد قبض عليها الانجليز ولفقوا لها تهمة قتلوها بها بعد ان اعتقلوها مدة

أما زوجها فقد فر الى الدنمارك حيث اعدمه ملكها أيضاً ومات غريباً عن بلاده

الملكة اليصابات



الملكة اليصابات

يؤثر عن اليصابات ملكة انجلترا قولها وهي تصبي : « احب انجلترا أكثر من أي شيء في العالم »

ولم تكذب في هذا القول فقد كانت تخطط الخطط وترسم

الترسيات لكي تفوز انجلترا في معترك السياسة الأوربية . ومن اجل انجلترا نزلت اليصابات عن جملة وافرة من حقوقها الملوكية ونزلت ايضاً عن كرامتها فكانت تكذب وتخون وتحنث من اجل انجلترا بل كثيرا ما نافقت في الحب وتظاهرت به رياءً لكي ترفع من مجد بلادها وعزها

وقد كانت مع ذلك امرأة تحب الدلال قد طبعت على الغنج وركبت نفسها على ما ركبت عليه نفوس سائر النساء من حب التمليق ورؤية الناس يعجبون بها ويعترفون بجمالها . ولذلك كانت على الدوام محوطة بجلة شباب البلاد الذين فاقوا أقرانهم في الجمال والفروسية تقضي وقتها معهم في المداعبة البريئة فيها شيء من إشمام الحب أو الشهوة

ولكن نفسها كانت نظمأ الى الحب الصحيح في هرج هذه المداعبات ولذلك ما هو ان عرفت والفت ارل استر حتى وجدت فيه ريها وعلقته وصارت تكتوي بنار حبه كما تلتذ بارتشاف رحيقه

ارتقت اليصابات عرش انجلترا وهي في الخامسة والعشرين من عمرها وقد وصفها مبعوث الماني ارسله مولاه لكي يتعرف حال هذه الملكة . فكتب عنها يقول :

« انها تعيش عيشة لا يكاد الانسان يتصورها لفرط ما فيها من البذخ وإيلام الولائم . وهي تقضي كثيراً من وقتها في المراقص والولائم والصيد وسائر هذه الملاهي تفعل هذا كله في مظاهر وأبهة ومع ذلك فهي حريصة على أن تكون محترمة عند الناس اكثر من

الملكة ماري . وهي تعقد البرلمان ولكنها تجعل الاعضاء يفهمون ضرورة اطاعة اوامرها في أية حالة »

وكانت بيضاء صهباء الشعر رشيقة القوام وكانت لها يدان عجيبتان لا تزالان موضوع اعجاب من ينظر الى صورتها

ويكاد يكون تاريخ حياتها معروفاً بالتفصيل لكثرة ما كتب عنها في مدتها وما نقب عنه المؤرخون بعد ذلك . ويؤخذ من كل ذلك انها كانت مزيجاً من العقل والهوى تنتابها نوبات من الجد تعقبها فترات من المزاح . وكانت اذا مازحت تمادت حتى يبعث تماديها الشكوك . ومما يؤثر عنها أنها وهي فتاة لم تبلغ السادسة عشرة اتهمت أو اتهم بالاحرى وصيها لورد سيمور بمداعبتها وقيل في التحقيق الرسمي الذي عمل بشأن هذه التهمة انها كانت تلاعبه وهي في قميص النوم . ولكن تبين من التحقيق أن هذا اللورد لم يحضر قط الى غرفها إلا وهو مصحوب بامرأته

وكان ملك اسبانيا يتعشقها ويراودها على الزواج حتى تصير انجلترا احدى ولايات مملكته العظيمة . فكانت تطاوله وتمطله خدمة لمصالح بلادها . وكانت تطاول ايضاً لهذا السبب عينه جميع من تقدم اليها يطلب يدها من الملوك والأمراء . فعلت ذلك بدوق دالنسون شقيق ملك الدنمارك وامبراطور اسوج وارشيدوق النمسا وغيرهم واستطاعت بهذا المطل والتسويف وايهام المتقدمين اليها بانها تنوي الزواج بهم أن توجد الشقاق بين اسوج والدنمارك وبين فرنسا

واسبانيا واحتفظت بسلامة انجلترا حتى آذن الوقت بضرب اسبانيا فضربتها ضربة لم تبرأ منها للآن

وقد خطر الزواج على بالها وكانت تشتهي أن يكون لها عقب ولكن حرصها على مصالح البلاد جعلها تتردد كثيراً حتى فاتتها الفرصة . وكثيراً ما كانت تذكر الاولاد وهي تتحرق أسى وكمداً فقد أُثر عنها أنها عند ما ذكرت امامها ملكة اسكوتلاندا قالت : « ان لملكة اسكوتلاندا ابناً سرياً أما انا فارض قاحلة »

وقد أحبت وأخلصت في حبها جملة رجال من حاشيتها ولكن كبرياءها أبى عليها أن تنزل عن مرتبتها الملوكية الى الاقتران بأحدهم. فقد كانت كلفة بسير وانر رالاي لا تطيق فراقه حتى منعته من السفر الى امبركا لهذا السبب. وأحبت ارل اسكس ولكنها عندما رأته يتعالى ويشمخ لم تتراجع عن التوقيع على ورقة اعدامه

ولكن ربما كان أعظم من نال قلبها وتسلط على عقلها وعواطفها هو ارل لستر . وقد جعل القصصي المعروف سكوت علاقته بها موضوعاً لأحدى قصصه في كتاب كنلورث . ومما لاحظه أحد المؤرخين ان اليصابات انعمت على جميع من أحبتهم فحبتهم بالمناصب السامية إلا لستر هذا وذلك لأنها كانت تشعر بخطورة ترقيته ورفعه الى مركز سام . كأن قلبها كان يحدثها بعظم مكانته في نفسها وأنها ان فعلت ذلك لم تقو على رده عن التزوج بها أو التلسط عليها في شئون المملكة

وكان ارل لستر جميلا شجاعاً ويقال أنه قتل امرأته لكي

يتفرغ للملكة وأن الملكة كانت تعرف هذه الجناية وتسترت عليها لأنها أرادت أن تحتكر قلبه وتحظى بشخصه قريباً منها في كل وقت

وقد كان والد اليصابات الملك هنري الثامن مشهوراً بحبه النساء ونزوعه الى تغييرهن حتى تزوج ثماني نساء . فلا عجب أن تكون ابنته قد نشأت على طبعه وربما منعها من الزواج هذه الطبيعة التي ورثتها عن والدها فما كانت تثبت على حب الا حب ارل لستر الذي حال كبرياؤها دون أن تستسلم له كل الاستسلام وترضى بزواجه

وقد عاشت اليصابات الى ان بلغت السبعين وكانت تدّهن بالادهان تصبغ وجنتيها وشفتيها وتخفي نحول الشيخوخة بملابس منفوشة . وكان رجال حاشيتها يتملقونها وهي في هذه السن فتستجيب لهم بالابتسامات والدعابات كأن هذه الفطرة التي نشأت عليها لم تبل بتقادم الزمن

وليس بين ملوك انجلترا من هو أقرب الى قلب الانجليز من الملكة اليصابات . واكبر ما يحببها اليهم انها رفعت شأن البروتستانتية وجعلت البحرية الانجليزية تسود البحار وكانت تسوّغ كل شيء لرفع شأن انجلترا . فالانجليزي لا يضن عليها باكرامه ذكرها مع تقلب اهوائها وكثرة محبيها وغدرها بهم احياناً

الامبراطورة كاترين



كاترين الثانية

من غرائب التاريخ ان أكبر رجل فرنسي أمتلك قلوب الفرنسيين ورفع شأنهم التاريخي لم يكن فرنسياً بل كان ايطالياً .

وكذا الحال في روسيا فان أكبر من ملك زمام الامة ونال أكبر مكانة في قلبها كان أمرأة ألمانية

ولكن هذين الاجنبيين ، نابوليون في فرنسا وكاترين في روسيا ، كانا يمتازان بالميزة الكبرى التي رفعتهما الى مقامهما السامي وهي ان كلاً منهما اندغم في الأمة التي تولى حكومتها فصار منها قلباً وقالباً يخدمها بعقله وقلبه

فقد كانت روسيا في منتصف القرن الثامن عشر تحكمها الامبراطورة اليصابات ابنة بطرس الاكبر ولم يكن لها خلف شرعي لكي يرث العرش . فأخذت تبحث عمن يليها وأخيراً عقدت ولاية العهد على ابن أختها الامير بطرس في سنة ١٧٤٢ . وكان فتى في السابعة عشرة خلواً من جميع خصال الملوك يقضي نهاره في الشراب ولا يجالس سوى أوشاب الناس وحثالتهم . وكان أبله يتسلى بالسخائف يجمع الكلاب فيصفها ويعاملها كأنها جنود . ويجمع الفئران ثم يأخذ في تعليمها وتأديبها فاذا اخطأت عقد لها مجلساً عسكرياً وحاكمها وحكم عليها بالاعدام

ولو كان من عامة الناس لما زاد عن أن يكون شحاذاً أو خادماً في حانة أو ماخور ولكن أبى القدر الا أن يلبس القرد تاج الملك ويجلسه على عرش الامبراطرة

وبحثت الامبراطورة اليصابات عن زوجة له وطلبت له أخت الامبراطور فريدريك الثاني الالماني . فأبى رأفة بأخته أن تقع فريسة لهذا الوغد الابله وشفقة عليها أن تعيش في ذلك الوسط الروسي .

وكانت روسيا اذ ذاك معدودة بين البلاد الهمجية في العالم والحق. انها كانت في ذلك الوقت أقرب الى آسيا في العادات والاخلاق والانظمة منها الى أوربا .

وأخيراً اهتدت الى أميرة المانية فقيرة تدعى صوفية وكانت فتاة في السادسة عشرة من عمرها بروتستانية المذهب كسائر أهل بلادها . فلما كانت سنة ١٧٤٤ عقد زواجها على الأمير بطرس بعد أن غيرت مذهبها واسمها . فصارت ارثوذكسية وصارت تدعى كاترين

وعاشت مع زوجها جملة سنين وهو ينا كدها وينغص عليها عيشها لا همّ له سوى كلابه وفئرانه وشرابه ولا يأنس الا باخوان الكأس يصابحهم ويماسيهم وهو في سكر متواصل . وقد تعلم منهم صنوفاً من السفالات وكثيراً ما أعنت زوجته وهي فتاة ساذجة قد نشأت على الصرامة الالمانية بساومها ممارسة هـذه السفالات فتأبى وتستغيث

وكان طبيعياً جداً أن تفتح كاترين عينيها باراء هذا الحيوان الذي صار زوجها تشيم بارقة حب في أولائك الامراء الذين يترددون على القصر . وكانت قد أكبت على اللغة الروسية حتى تفقهتها وصارت لا تخرج للناس الا في مظاهر روسية فاحبها الجمهور ومالت اليها القلوب . وكان من بين المترددين على القصر رجل تبدو على وجهه أمارات الرجولة يدعى اورلوف فجرأته على أن يقرب منها ونشأ بينهما حب دام عدة سنين

ولم تبلغ كاترين الثلاثين حتى كان لها جملة أولاد يشك الكثيرون في انهم كانوا أولاد زوجها لعلاقتها باورلوف هذا ولان الشجار بينها وبين زوجها لم يكن ينقطع

وماتت الامبراطورة وارتقى الامير بطرس العرش . وهنا يذكر المؤرخون اصلاحين عظيمين قام بهما بطرس هذا . ولكن الحقيقة انه ليس له فيهما أدنى فضل

فانه عند ما ارتقى العرش شدّ من عزيمته ونوى أن يستقيم وينظر في شئون أمته . ولكن هذه العزيمة الشريفة كما يحدث كثيراً في أمثاله لم يكن فيها من القوة سوى ما في المصباح يشب لهبه قبيل الانطفاء الاخير . فسرعان ما عاد الى شرابه وكلابه ولكن حدث وهو في جمع حافل من هؤلاء الاوشاب الذين كان يجمعهم حوله للشراب أن دخل عليه ضابط غيور بغار على العرش وعلى مصلحة البلاد . فوجده سكران فاخذ يخطبه ويحثه على خدمة بلاده ويذكر له مجد آبائه . وقدم له خلال ذلك مشروعين للاصلاح . وامتزجت حماسة خطبة الضابط بحرارة الخمر حتى تنخى الامبراطور وأخذ أوراق المشروعين ووقع عليهما وهو لا يدري ما يفعل

وكان أحدهما يقضي بالغاء مكتب الشحنة السرية التي آذت الناس كثيراً والآخر يرد الى النبلاء بعض حقوقهم التي كانت قد انتزعت منهم

ولكنه عاد ثانياً الى شرابه وعادت اليه عصابة السوء التي

كانت تساقيه . وابطره السلطان فصار يستبد ويقذف السباب على الامبراطورة جهراً أمام الناس في الحفلات الكبرى . فمن ذلك أنه أعلن مرة أن ابنها البكر ليس ابنه وانما هو من نسل عشاق الامبراطورة

وكانت هذه التهمة تكفي وحدها لطلاق الامبراطورة أو قتلها . فاخذت هي الاخرى تكيد له وتبحث عن طريقة تقضي بها على حياته . وأخيراً دبرت بعناية عشيقها أورلوف مؤامرة لخلعه . ولكن قبل أن تختمر المؤامرة علم الامبراطور بطرس بها وتحرجت عندئذ الحال وخشيت هي أن تقدم للمحاكمة وتعدم . فسارعت الى جواد وامتطته وسارت الى الثكنة التي يقيم بها الجنود الروس في بطرسبرج وناشدتهم المعاونة على خلع الامبراطور . وكان هؤلاء الجنود يكرهون بطرس لميله الى الالمان وتأليفه حرساً منهم يؤثره على الروس

فتقدم اليها الضباط بجنودهم واقسموا لها يمين الولاء وخرج الجميع في أثرها حتى قبضوا على بطرس وساقوه أسيراً في إحدى القلاع . وذهب اليه اورلوف وحاول ان يجرعه سماً ولكن بطرس كما هو الشأن في عدد كبير من البله لم يكن ضعيف العضلات . فقاوم اورلوف . فعمد اورلوف الى جوزة عنقه فقبض عليها واعتصرها حتى خرج الدم من أذن بطرس ولم يتركه الا بعد أن مات

ولم تكن كاترين ترغب في كل ذلك ولكنها لم تجد بداً من

الرضى بعد اذ نفذ السهم . وصارت من ذلك الوقت امبراطورة روسيا المتحكمة في حظوظها

وكانت عند ما لجأت إلى الشكنة تستنجد بالجنود قد خرج اليها ضابط جميل الوجه والقوام وقد وقف امامها وقفة الادب والاحترام ثم أشار إلى أن خوذتها ليس عليها ريشة وفي الحال انتزع ريشته وتقدم ووضعها برفق على خوذة الامبراطورة . وليس من شأن هذا العمل أن ينسى في تلك الظروف الخطيرة . ولذلك تذكرته الامبراطورة بعد قتل زوجها واستدعته اليها

وكان هذا الضابط يدعى بوتمكين . وكان يختلف عن اورلوف من حيث تمدينه وتوحش اورلوف . فقد كان رجلا مهذباً أنيقاً في ملابسه يحب الكتب ويدبر الحروب بينما لم يكن في اورلوف من الصفات التي تحبها الامبراطورة سوى جراءته ورجولته

فانعمت على اورلوف وغمرته بالطافها حتى تركها راضياً مسروراً واستأثرت ببوتمكين . وتبين لها بعد أن عرفت بوتمكين ان حبها الماضي لم يكن سوى شهوات متوثبة أما هذا الحب فهو دائم متواصل . ذلك فيه حرقة الجوع وأنانية الطمع . اما هذا فكله عطف واستسلام وحنان

ولم تكن كاترين جميلة من حيث الجسم . فقد كانت ربعة متناسبة أعضاء الوجه الذي لم يكن فيه مما يفتن سوى حاجبين اسودين ثقيلين يشتد ظهورهما لان شعر رأسها لم يكن فاحم اللون

مثلبا . ولكنها كانت ذكية لها قدم في الاداب وكانت تكاتب فولتير وكثيراً ما دعته إلى القدوم اليها فابى

وأحبت بوتمكين وانعمت عليه انعام الاغداق حتى بلغت ثروته بعد سنتين من معرفته بها نحو ٩ ملايين روبل وكان لا يعرف ضياعه لكثرتها وسعة مساحاتها . ولكنه هو نفسه كان أيضاً مخلصاً في حبه لها فلم يكن يبالي أن يضيع هذه الثروة الضخمة لكي يرضيها أو يترضاها . فقد بنى لنفسه قصراً في بطرسبرج وكان يدعوها اليه فيه ويعقد لها الولائم الفخمة تزري بولائم الملوك وتذكر الناس بانطونيوس وكليوبطرة . فقد دخلت الامبراطورة في إحدى زياراتها مكتبة بوتمكين فوجدت من الكتب ما ربن جلدته بالجواهر الثمينة كالالماس والياقوت . وفتحت بعض الكتب الاخرى فوجدت الاوراق مؤلفة من البنكنوت الانجليزي . وحدث ان الامبراطورة أرادت أن تزور وادي نهر الدينيبر في صحبة بوتمكين . فلكي يسرها ويوهمها بعمران البلاد أمر فبنيت أكواخ على شط النهر من الخشب والقماش كما نبنى على مسارح التمثيل وأمر أناساً يقفون إلى جنب هذه الاكواخ يهتفون لها كلما مرت بهم

وقد حارب الاتراك ونال عدة انتصارات اتسعت بها الامبراطورية الروسية ولكن كاترين لم تكن تحبه لهذه الانتصارات وانما لشخصه وما ترى فيه من شدة تعلقه بها وولائه

لها . فكان اذا بعد عنها ورافق الجيوش في الجنوب لمقاتله الاتراك لا تهتف الا باسمه وإذا كان في بطرسبرج فلا تفارقه

ومات بوتمكين وهو في جنوب روسيا وحزنت عليه كاترين أشد الحزن وبقيت لا تذكره إلا باللوعه والاسى حتى ماتت بعده بخمس سنوات

ماري انطوانيت



ماري انطوانيت

أكثر الناس يعطفون على الملوك ويغلون بهم عما يحدث للناس من النكبات كأنهم ليسوا من البشر أو كأن هناك امارة باقية من

الاعتقاد القديم بأنهم آلهة . ومع ذلك فالتاريخ يشهد بأن عدداً كبيراً من الملوك الذين نزل بهم حكم الموت واعدموا بالرصاص أو المقصلة كانت نفوسهم نفوس صعاليك أوغاد

هاك شارل الأول ملك انجلترا مثلا بلغ حبه الاستبداد أن طرد نواب الأمة من دار البرلمان وكتب على بابه «بيت للايجار» فجازته الأمة جزاء وفاقاً بقطع رأسه

وهاك قياصرة روسيا تركوا الأمة تتمرغ في جهلها السنين الطوال وهم يضطهدون زعماء الرأي وقادة الفكر فيها ينفونهم الى بادية سيبيريا ويحكمون على الرجل منهم بألف جلدة تقسم له نجوماً فيتناول كل اسبوع نحو خمسين جلدة حتى يستوفي عقابه . وكان يبلغ اليأس والجزع من هؤلاء المحكوم عليهم بالجلد أن يعمدوا الى أحد زملائهم أو الى السجان نفسه فيقتلونه لكي يحكم عليهم بالقتل فينجون بذلك من الجلد . ومع ذلك عندما قتل قيصر روسيا تفجع الناس لقتله

وهاك ماري انطوانيت ملكة فرنسا كانت امرأة صعلوكة تربعت على عرش أكبر دولة في العالم في ذلك الوقت وأرادت أن تتزيا بزي الملوك فخانها طبعها واستشف الناس منها نفساً دنيئة وروحاً ضئيلة . واتفق أن عصفت ريح السياسة في وقتها فلم تستطع أن تملك زمامها نطفت عليها وأهلكتها

ولدت ماري انطوانيت سنة ١٧٥٥ وكانت امها ماري تيريزا احدى ملكات اوربا الشهيرة . وكان وجهها ممروقاً يكاد يكون،

نحيلا وكانت عيناها صغيرتين تشبهان عيني الخنزير وكانت شفتها غليظة وزاد الطين بلة انهـا لم يكن قوامها معتدلا حتى كانت وهي طفلة تلف وتعصب حتى يعتدل ما اعوج من قوامها

وعندما بلغت الرابعة عشرة خطبت الى ولي عهد فرنسا وكانت في ذلك الوقت قميئة الهيئة ليس فيها من صفات الجمال سـوى تاج ذهبي من الشعر الكثيف . وبعد عام تزوجت من ولي العهد وانتقلت الى البلاط الفرنسي في باريس

وكان لا يزال للبلاط الفرنسي في حكم لويس الخـامس عشر بعض الكرامة في عين الجمهور وكان لا يزال فيه شيء من لألاء البلاط السابق . فكان الناس يأتون كل صباح لـكي يروا الملك وهو يلبس ملابسـه ويتناول فطوره . يفعل كل ذلك علانية أمامهم في ابهاء القصر المكشوفة كأنه ممثل على مسرح . فكان بينه وبين الجمهور الفة وتعلق

وعندما تزوج العروسـان أمرهما الملك أن لا يناما في غرفة واحدة وأن يأخذا أنفسهما بالوقار . ولـكن ماري انطوانيت لم تكن لها هذه النفس التي تعرف معنى الوقار وتتخذ سمت الملوك . فسارت سيرة النزق والطيش في القصر حتى أن الملك المسن نفسه على كثرة ما قضى من أيامه في التهتك والاستهتار أكبر نزق هذه الفتاة وأخذ ينصح لها بأن ترعوي . وبلغت أخبار سيرتها والدتها فأرسلت الى السفير النمسوي تقول له : « اخبرها انها ستفقد عرشها وقد تفقد حياتها أيضاً اذا لم تصطنع التبصر والتقية »

ولكن النصائح لم تكن تجدي في ماري انطوانيت وربما كان يكون لها وقع لو أن زوجها كان على شيء من « الخلق العظيم » ولكنه هو الآخر لم يكن أهلا لأن يكون ملكا . فقد كان غبياً لا يهتم الا لشيئين في العالم وهما الصيد والحدادة . فاذا لم يكن في الحقول والغابات يقفو أثر طير أو ثعلب فاكثر ما يكون في دكان حداد صنعها لنفسه يقضي فيها وقته بين الكير والزندان يصنع قفلا أو نعلا أو مسماراً . واذا خرج من دكانه وقد كساه نواس الدخان لقي زوجته وهي في ملابسها المفهافة وقد علاها زبد من النسيج المخرم وعبق حولها أرج العطور

وقد يكون في هذا الاختلاف بينهما في المزاج ما يخفف من تبعة ماري انطوانيت فقد كانت هي تحب اللهو بمقدار ما كان هو يحب الصيد وصنع الاقفال

وقد كثرت الاشاعات عن ماري انطوانيت كما كثرت الظنون . فكان البعض ينتقدها بينما البعض الآخر يدافع عنها دفاع المتهكم المعتذر عنها . ولكن نتيجة ذلك كله كانت احتقارها هي وزوجها في وقت كانا فيه في أشد الحاجة الى احترام الجمهور . فقد كانت امائر الطوفان الذي تنبأ به لويس الخامس عشر قد بدأت تظهر وأخذ الاستياء تدب عقاربه بين طبقات الأمة . ومات الملك بالجدري واخرج من القصر في عربة قذرة ليس حوله أحد من خاصته أو حاشيته . وصارت بذلك ماري انطوانيت ملكة تطاع لا تجد من حميها ما يعارض اهواءها ويكبح جماح شهواتها

وكانت هـذه الأهواء وهـذه الشهوة قوية فانطلقت الألسنة حولها لا تتحرج في شيء تقوله عنهـا . وكان من اهواء ماري أن تلبس قبعة طويلة مزينة بعشرات من الريش الزاهي المختلف الألوان وكانت تختار من الملابس الرحب المتهدل على الجسم ولم تـكن تستعمل الـكورسـيه فـكانت اذا خرجت الى حفلة بدت للناس كأنهـا في غرفة نومها . وكانت تتصعلك أحياناً في لباسها تخرج للناس في أهدام بالية ويداها قذرتان وأسنانها بعيدة العهد بالفرشاة قد علتها طبقة من الحفر . وكانت اذا جن الليل تتنكر وتلبس بذلة العاملات وتخرج تسـير في شوارع باريس وكان بعض الناس قد عرفها فـكانوا يحتكون بها في الشوارع كأنهم يجهلونها

وكان مسلـكها هـذا مدعاة الى اتهام الناس لها بأفظع التهم . وكان الملك جامداً نحوها لا يأبه بما تفعل . وبقيا مدة طويلة بلا عقب حتى اهتم لذلك البلاط النمسوي وكتب سفير النمسا يلمح الى ضرورة وجود وارث للعرش

وحدث في هذه الأثناء ان زار شريف أسوجي البلاط الفرنسي وكان وسيما ذا طلعة بهية نبيلة يدعى الـكونت فرزن . وكان شـاباً صـافي السريرة ورأى الملـكة فعلقها وكتم هواه . فلم يكن يبدو للملـكة منه سـوى العطف الخفي والاشـارة المختلسة والايماء الـكاسي بالوقار

وكانت ماري انطوانيت قد عرفت جملة محبين ولـكنهم كانوا يستغلون حبها لمصلحتهم . اما فرزن فلم يكن يبغي من الحب سوى

الحب . فاكبرت الملكة هذه العاطفة الشريفة فيه وكان قلبها قد طمىء الى الحب الصحيح الدائم تركن اليه في وسط هذه الشهوات الجامحة الزائلة . فلما أيقنت بحبه لها استجابت له ولبت رغبته فيها . وتساقيا كؤوس الغرام

ولم يمض قليل حتى اعلن أن الملكة قد حملت وانها على وشك الوضع . فكثرت تقولات الناس وتأولاتهم وصار الهمس الخافت صوتاً جهيراً لأن حرمة الملوكية كانت قد زالت من النفوس وتهيأت الأمة للوثوب على العرش

وبلغ من عماية رجال البلاط أن شقيق الملك وقف شبيناً للطفلة التي ولدت . وبينما الجموع محتشدة في الكنيسة الكاتدرائية الكبرى نوتردام تقدم القسيس قبل التعميد يسأل عن اسم الطفلة فقال الشبين :

« لا يحسن بنا أن نبتدىء بهذا السؤال . فلنسأل أولا عن أب الطفلة وأمها من هما ؟ »

وتنوقلت هذه الحكايات حتى صار يلوكها كل ساكن في باريس وصار الناس ينظرون الى فرزن نظرات التلويح والتلميح . ومما يؤثر عن علاقته بالملكة هذه القطعة التالية التي كتبها في أحد خطاباته السفير الاسوجي في باريس الى ملك اسوج :

« اني اسر الى جلالتكم أن الكونت فرزن قد تقبلته الملكة قبولا حسناً حتى اساء الكثيرون ظناً بذلك . وأنا أعترف بأنها تحبه فقد رأيت على ذلك البراهين التي لا يتسرب اليها الشك .

ففي الأيام الأخيرة القليلة لم تحول الملكة نظرها عنه وكانت عيناها طول ذلك الوقت مملوءتين بالدموع . وأرجو جلالتكم أن تحفظوا بهذا السر »

وكانت الملكة تبكي لأن فرزن قد أجمع على أن يسافر الى أمريكا ضناً بشرفها وعرضها أن تلوكهما الألسن . فقد رأى أن العيون ترمقه وتلحظه لحظاً ذا معنى فأراد أن يقطع عن حبيبته مع شدة تعلقه بها ألسنة الناس . فعزم على مبارحة فرنسا للالتحاق بجيش لافاييت الذي كان يعاون الاميركيين على نيل حريتهم من الانجليز . واذاع قبيل سفره أنه قد عزم على أن يتزوج من احدى الاسوجيات المثريات

وبقي فرزن في أمريكا ثلاث سنوات عاد بعدها الى فرنسا وعادت علاقته بالملكة . وكان تيار الثورة قد أوشك أن يطغى بالملوكية وجاء الجزاء العادل للمظالم الغابرة . فحاول فرزن في سنة ١٧٩١ أن يأخذ الملك والملكة ويفر بهما حتى يخرج من الحدود الفرنسية ودبر لذلك التدابير اللازمة ولكنه أخفق وقبضت العامة على الملك والملكة وهما في بعض الطريق وعادوا بهم يتغنون بأناشيد الثورة

وجاءت سنة ١١٩٢ فاخذ الملك وفصل رأسه بالمقصلة وقضت الملكة بعد ذلك مدة في السجن وهي عرضة لمختلف الاهانات المتنوعة من وحوش الثورة الفرنسية حتى أخذت هي أيضاً إلى المقصلة وقطع رأسها

وعاش بعدها فرزن عشرين سنة ومات هو الآخر في شوارع متوكهولم على أيدي الرعاع الذين مزقوه وهم في جنون الحنق والغيظ. فكانت موتته تشبه موتة الملكة اذ مات كلاهما على أيدي الرعاع. وقد عاش بعدها اميناً على حبها لا يذكر سواها ولا يتعزى بشيء آخر

وخلاصة حياة ماري انطوانيت أنها بدأت حياتها وهي كثيرة الاهواء والنزعات تستسلم لطيش الشباب وجنون الشهوة. وقد ساء حظها في زوج لم يحبها وربما لم يكن يقدر على حبها. ولم يكن لها من العقل أو الخلق ما يجيزها هذا الطوفان الهائل الذي طغي على فرنسا في آخر القرن الثامن عشر. ولما وجدت مس الحب الصحيح اخلصت له واصطلت بناره. ثم نزلت بها الارزاء العظيمة ورأت زوجها يقتل أمامها ويبسط النطع لرأسها فرفعتها هذه الارزاء حتى انتفضت نفس الصعلوكة القذرة نفساً ملوكية عالية تتقدم للمقصلة وهي تتهادى في مشية الملوك مرفوعة الرأس ثابتة القدم

شارلوت كورداي



شارلوت كورداي

كانت شارلوت كورداي فتاة فرنسية تنتمي الى اسرة شريفة قديمة يعد منها كورناي الشاعر . ولكن الدهر اخنى على الاسرة ،

حتى صار جملة من افرادها في عداد الاكارين . ولكنها نشأت في وسط بعيد عن الريف والطبيعة . فقد قضت صباها في أحد الاديار حيث لقنت القراءة والكتابة وجال فكرها جولة صغيرة في الكتب المقدسة وخرجت من الدير فلزمت عمة لها عجوزاً وكان بمنزلها بعض الكتب فالتهمتها التهاماً . وكان أحب الكتب اليها تراجم فلوطرخس وتاريخ الرومان حتى امتلأ رأسها بقصص المجد والبطولة والتضحية . فكان مناها ان تخدم بلادها ويخلد ذكرها في صحف التاريخ وتقرن ترجمتها الى تراجم اولئك الابطال الذين قرأت عنهم

وشبت الثورة الفرنسية وهي حوالي العشرين في العمر فاهتمت لها وأخذت تدرس اسبابها وترقب تطورها . وكانت تعطف على العامة لقيامهم على الحكومة ورغبتهم فى قلبها لأنها رأت بعينيها عسف النبلاء والموظفين بالاهالي الذين كانوا يئنون من الضرائب الباهظة يلي بعضها بعضاً طول العام حتى عم الفقر البلاد وشمل الشقاء جميع الطبقات عدا الاشراف والموظفين وكل متصل بالبلاط

ولكن الثورة الفرنسية تولى قيادتها فئة من الغلاة أخذت في التقتيل واضطهاد المخالفين لمذهبها القائلين بالتؤدة والاعتدال فضج الناس من ظلمها . اذ بعد ان قتلت الملك والملكة واتبعتها بعدد كبير من الزعماء وقادة الرأي أخذت تبث العيون بحثاً عن الخونة . و« الخونة » في عرف هذه الفئة لم يكونوا سوى كل معتدل يجرؤ على نقد رجالها وأعمالهم

وكان مارات زعيم الفئة السفاكة . بدأ حياته بمزاولة الطب

ودرس العلوم الطبيعية . وبرع في هذا الدرس بعض البراعة حتى أقر له جيته الاديب الالماني وفرانكان العالم الطبيعي المعروف بما أداه من الخدمة في درس الكهربائية . ولكن ما نشبت الثورة الفرنسية حتى نفض مارات عنه رداء العلوم وتقمص ثوب السياسة وانغمس في حمأتها حتى جلب على نفسه عداء عدد كبير من الناس لغلوه في الدعاية الى الجمهوريه واضطهاد المعتدلين القائلين بتقييد الملوكية بدستور على النحو الانجليزي . وأخذ اعداؤه في مناوأته والبحث عن اذاه حتى اضطر الى الهجرة الى انجلترا خوفاً منهم وبقي هنالك مدة عاد بعدها الى باريس خفية

ولكنه وجد اعداءه يقظين يترقبون مجيئه ويفتشون عنه فاختفى منهم في مكان لا يخطر ببالهم ان الكلاب تعيش فيه اذ لم يكن هذا المكان سوى سرداب تجري فيه أوساخ مراحيض باريس فكمن فيه نامتاً يرسل على أعدائه منه سهاماً من المقالات المسمومة ويحرض عليهم ويغوي العامة بهم . وناله من مقامه في ذلك السرداب مرض جلدي شنيع يقذي عين الناظر ويولمه أشد الألم حتى انتهى به الحال ان يخفف وطأته عليه بأن يقعد طول نهاره في حوض ماء دافىء

وكانت شارلوت تسمع عن مارات أنه زعيم الفئة السفاكة وان المقصلة لا تهدأ عن قطع الرؤوس ما دام هذا الرجل حياً . وكانت تعيش في نورماندي حيث أكثر السكان من الجيرونديين أي المعتدلين فكانت تغشى اجتماعاتهم وتشرب آراءهم حتى وقر في

ذهنها وثبت في قلبها انه لا نجاة لفرنسا الا بقتل مارات.

ففي سنة ١٧٩٣ قر قرارها على ان تذهب الى باريس وتقتله وحصلت على جواز بسفرها من بلدتها كاين في نورماندي الى باريس (ولا يزال هذا الجواز محفوظا) وقد جاء فيه ما يلي :

« اجيزوا مرور ماري كورداي . عمرها ٢٤ عاما وطولها خمس أقدام وبوصة . ولون شعرها وحاجبيها كستني وعيناها سنجابيتان وجبهتها عالية وفمها متوسط وفي ذقنها نونة ووجهها بيضوي »

ويوجد أيضاً لها رسمان باقيان للآن يتبين منهما أنها كانت جثلة الشعر تنطق عيناها بالاخلاص والشجاعة وكان قوامها معتدلا ينطوي على الشجاعة والرشاقة

ولما وصلت باريس أرسلت الى مارات ورقة تقول فيها :

« أيها الوطني . لقد وصلت من كاين هذه الساعة . وليس شك في ان حبك بلادك يرغبك في ان تعرف الحوادث التي حدثت في هذا الجزء من الجمهورية . وسأزورك بعد ساعة . فارجو من احسانك أن تتكرم بمحادثي . وسأفيدك بما فيه منفعة فرنسا »

فرفض مارات ان يتلقاها . فعاودت الطلب وعاود الرفض . ثم جاءت مرة ثالثة وأخذت تتكلم مع الخادم وتلح في رؤية مارات. وسمع مارات صوتها فاستدعاها وكان قاعداً في حوض يغمر الماء معظم جسمه وهو يقرأ ويكتب . فلما دخلت حيته وأخذت تصف له جماعة الجيرونديين المعتدلين في بلدتها وما ينوون فعله . فلما سمع مارات ذلك قال لها :

« جميع هؤلاء الذين تذكرينهم سيقتلون قريباً في بضعة أيام »

وكانت شارلوت قد اشترت سكيناً من نوع السكاكين التي تستعمل في المطابخ فاخرجته من صدرها وطعنت مارات به عدة طعنات مزقت قلبه ورئته. وصاح مستغيثاً فدخلت خادمتاه واوثقتا شارلوت وسرعان ما جاء الشرط وقادوها الى المخفر

والآن قد يتساءل القارىء: أين هو الغرام في هذه القصة الطويلة وقد ادركنا خاتمتها أو كدنا ؟

والحقيقة ان غرام شارلوت كورداي من أعجب ما روته التواريخ فانها عندما قدمت للمحاكمة كان قد تسامع الناس عن الجناية وأخذوا في الحديث والمبالغات في الرواية عن هيئتها وسيرتها حتى بلغ الخيال من بعضهم ان صار يصفها كأنها غول بشع. فازدحم الناس الى المحكمة لرؤيتها. وكان بين هؤلاء المتزاحمين شاب الماني يدعى ادم لوكس بعثه الاستطلاع على ان يذهب هو الآخر ايرى هذه الغولة

ولكنه ماذا رأى ؟ رأى وجه فتاة قد جلل وجهها الشعر الجميل يزيد حسنه منديل أبيض قد ربط فوقه على عادة الفتيات النورمنديات ورأى عينين يتجلى فيها الوقار والجد وتكادان تختفيان وراء الاهداب الطويلة السوداء ورأى وجهاً ينبض بالصحة الوفيرة وقد احتقن بفعل الشمس والهواء الطلق. هذا الى صدر منتفج وذقن كأنها ذقن قيصر كلها ارادة وعزم تكسو جميع ذلك هالة قدسية من التضحية وبذل النفس في مصلحة الوطن. ولم يرها ادم لوكس سوى مرة أخرى في ١٧ يوليو وهي تحت المقصلة. ولكنه سحر

بجمالها فاخذته روعته وافتتن بجلالة نفسها وذهب يوم اعدامها الى المقصلة وسمعها باذنه وهي تقول قبل ان تهوي على عنقها : « حسبي اني أديت واجبي : وما عدا ذلك فباطل »

فجن ادم لوكس جنونه وذهب في كل مكان يلعن القضاة الذين حكموا عليها ووضع رسالة في ذلك قال فيها :

« ليست المقصلة عاراً الان اذ قد صارت منذ ١٧ يوليو مذبحاً قد غسل من كل دنس بهذا الدم البريء . اجل يا شارلوت المقدسة اغفري لي اذا لم يبدُ مني في الساعة الاخيرة تلك الشجاعة وتلك الوداعة اللتان هما من صفاتك . انه لمن مجدي ان اجدك تفضلينني لأنه حق أن يفضل المعبود عابده »

وانتشرت هذه الرسالة بين الناس وقبض على ادم لوكس وقدم الى المحاكمة . وكان كما قلنا ألمانياً فكان القضاة على الرغم من أن موضوع الرسالة لا يعدو أن يكون سرحاً لسفههم وسباً فيهم يميلون الى تبرئته على شرط أن يجحد ما قاله وأن يعود الى المانيا

ولكن القضاة كانوا يجهلون الطور الذي بلغه أدم لوكس في حبه شارلوت فقد كان حبه لها قد بلغ حد العبادة حتى صار يخشع لذكرها ويأوه عندما نخطر بباله . فكانت في الحقيقة وسواسه وهمه وربه . ولذلك ما كاد أن يسمع من القضاة اقتراحهم جحد ما قال في الرسالة حتى انهمرت من فيه الفاظ السباب فأخذ يشتمهم ويحقرهم ويمجد ذكر شارلوت تمجيد العابد لربه

وحكم عليه بالاعدام . فاسفر عندئذ وجهه وسار الى المقصلة مستبشراً واثقاً أنه أدى ما عليه نحو شارلوت

نابوليون وماري فالفسكا

كانت هموم نابوليون في الفتح والحروب ومشاغله في مكايدة امراء أوربا وملوكها وسوس رعاياه تحول دون صرفه اهتمامه الى الحب والغرام . فكان لاينظر الى المرأة الا بمقدار ما فيها من المحاسن التي تلبي شهواته الدنيا . فكان يشتهي دون ان يحب . ولكن المرأة التي كان يشتهيها كانت تجد فيه من صفات الرجولة وسمات العظاميين والتفوق النادر والطموح الدائم الى السيادة ما كان يجعلها تتعلق به وتعشقه وتحبه حب التضحية . وقد عرف نابوليون جملة نساء قل منهن من خنه . وكثر منهن من اخلصن له وعشن على ولائه

ومن هؤلاء النساء مدام ماري فالفسكا . كانت فتاة بولندية في الثامنة عشرة من عمرها وكانت غاية في الجمال كأنهـا دمية اغريقية وكان في عينها حور وفي اهدابها طول يزيد قوة هـذا الحور وأثره في نفس الناظر . وكانت تنتمي الى أسرة فقيرة ورآها احد اشراف بولندا وكان رجلا فانياً مسناً فاحبها حب الدشق والوله وتزوج بها

وحدث ان دخل نابوليون بولندا في سنة ١٨٠٧ بعد ان هزم النمسا وقضى على جيوش المانيا . وكان البولنديون ينوسمون فيـه المخلص لبلادهم المعيد لهم استقلالهم من الامم الثلاث التي اقتسمتها وهي روسيا والنمسا والمانيا . فقابلوه بمظاهر الحماسة والتهليل وكانت عربته لا تدخل الى بلدة من بلادهم حتى كانت طاقات الزهر تغمرها وتنثر تحت ارجل خيولهـا . وكان قد تطوع في الجيش الفرنسي

آلاف من البولنديين الذين كانوا يرجون ان يحققوا استقلال بلادهم على يدي نابوليون . وكان نابوليون يعرف قيمة هذا الامل في تقوية جيشه فكان يمني البولنديين بالوعود الخلابة ويعللهم بالاماني التي كان يعرف هو نفسه كذبها وعدم أمكان تحقيقها

فبينما كان نابوليون في مدينة برونية سائراً في عربته والهتاف يتعالى والنساء يزحمن الرجال وعطر الزهور يعبق في الهواء واذا بصوت حلو يقول : دعوني أمر حتى أراه ولو لحظة واحدة

وكان هذا صوت ماري فالفسكا . وما هو ان شقت طريقها اليه وصارت أمام العربة حتى قالت : ارحب بك ثلاثاً يا مولاي . أننا مهما قلنا أو فعلنا فلسنا نقدر على ان نترجم عن شعورنا بالفرح لقدمك وعن رجائنا بان تخلص بلادنا من الظالمة

فتأثر الامبراطور من جمالها وانحنى أمامها وأخذ طاقة من الورد وقدمها اليها قائلا : خذي هذه برهاناً على اعجابي . وأني أرجو ان التقي بك في فارسوفيا لكي اسمع من هاتين الشفتين كلمات الشكر

ولم يكن نابوليون ممن ينسون شيئاً يسر أو يضر . فما هو ان وافى فارسوفيا حتى سأل عن الفتاة وطلب منها قدومها اليه

ولم تمض ساعات حتى كان الامير بونياتفسكي يرافقه آخرون من نبلاء بولندا قد وصل الى منزل الفتاة يسألها التوجه الى الامبراطور . وتعجبت الفتاة من هذه الدعوة وحرص نابوليون على معرفة منزلها واحتفاله بها حتى يرسل اليها بضعة من أشراف قومها لكي تحضر معهم اليه . فغمرها الحياء حتى صبغ وجنتيها . ثم قال الامير :

« هذا يا سيدتي هو ما أمرني به جلالته . طلب الي ان أدعوك الى الحضور الى الاحتفال الذي سيعقد للرقص هذه الليلة . ولعل الله قد قدر ان تكون نجاة بلادنا على يديك »

وكانت ماري تغالي في وطنيتها وتتوق الى استقلال وطنها فكانت هذه الوطنية تغريها بالذهاب الى نابوليون ولكن شيئاً وسوس في صدرها بأن نابوليون لا يبغي خيرها من هذه الزيارة . فترددت ثم احجمت

وما كاد هؤلاء الاشراف يخرجون حتى جاءها فوج آخر من الاهالي الذين عرفوا بخبر هذه الدعوة وصاروا يلحون عليها في تلبية دعوة الامبراطور حتى زوجها نفسه لم يحجم عن التضحية بعرضه الشخصي لاجل منفعة وطنه . فاخذ هو الآخر يلح عليها بالذهاب

فذهبت تلك الليلة الى الاحتفال وقعدت منزوية في احدى نواحيه لأنها كانت تجهل فن الرقص . وبينا هي تكلم الامير بونياتفسكي واذا بشخص قد وقف الى جانبها شعرت هي أنها لاتجسر ان ترفع نظرها في وجهه . وكان هذا الواقف نابوليون الذي فاجأها بقوله : لقد اخطأت في اختيارك هذا اللباس الابيض . لأن الابيض لا يشاكل الابيض

ثم انحنى عليها وقال وهو يهمس : كنت انتظر استقبالا آخر

فلم تقو ماري على التبسم أو على التطلع الى وجهه . ثم تركها في مكانها وسار بعيداً عنها . وانتهت الحفلة وخرج المدعوون

وذهبت ماري الى دارها وقلبها مفعم بالاحساسات المختلفة

وفي الصباح وماري تتقلب على فراشها تحاول ترتيب هـذه الاحساسات واذا بالخادمة تدخل وتناولها مظروفاً فضته وقرأت فيه هذه العبارة الموجزة :

« لم أرَ أحداً غيركِ . لم أُعجب الا بكِ . لا ارغب الا فيك . اجيبي فوراً وهدئي روعي

« ن »

فلم يبقَ شك عند ماري في الغرض السافل الذي يطلبها من أجله نابوليون فاخذتها العزة بالعرض وشاع الغضب في جسمها وحمي رأسها ثم تفجرت عيناها بالدموع فاخذت تنشج احر نشيج وتبكي مر البكاء وتندم على تحيتها له وهو مار في العربة

ولم تجب على رسالة نابوليون وبقيت الى اليوم التالي . ولـكن ما أتى عليهـا صباحه حتى اسلمتها الخادمة خطاباً آخر . فاخذته ورفضت أن تفتحه . ثم توافد الزائرون الى بيتهـا وهي راقدة في سريرهـا ترفض استقبالهم . وكان جميع الزائرين يعرفون غرض نابوليون ويستهينون بعرض المرأة يبذل في سبيل تحرير الوطن . حتى زوجها نفسه صار يعنفها على عدم تلبيتها دعوة الامبراطور . وأخذ الناس من أهالي بولندا المشتغلين بتحرير بلادهم يرسلون اليها الخطابات يسوغون لها فيها التضحية بالعرض من أجل رفعة الوطن وكرامته واستقلاله

وهكذا قضي ان تتألب جميع القوى على هذه المرأة لـكي

تذعن لارادة نابوليون . وكانت قد اقيمت وليمة كبرى دعيت اليها فاجابت

فلما التأمت الوليمة مر نابوليون على المدعوين ووقف عندها وقال : سمعت ان المدام كانت متوعكة . فعسى ان تكون قد شفيت

ولم يزد على ذلك كلمة طول السهرة يوهمها بذلك أنه لم يعد يبالي بها . وكان نابوليون داهية يرمي الى غرض بعيد في كل ما يفعل فاخذ هو في تلك السهرة ينظر الى بعض النساء ويقبل عليهن بالحديث كأنه مشغوف بهن وكأنه قد نسي ماري التي أعرض عنها تمام الاعراض . وفي خلال ذلك تلحظه ماري وتأسف على تلك الفرصة التي عرضت وفاتت دون أن تنتفع بها

وأنتهت السهرة وطلب الى ماري أن تبقى . فبقيت وجاءها أحد قواد نابوليون وناولها رسالة . فلما فضتها وجدت ان نابوليون يضرب لها ميعاداً تلك الليلة للقائه ويهيء لها الوسائل اللازمة لاخفاء أمرها

ثم لم تمض برهة قليلة حتى طرق الباب ودخل خادم وناولها ما تستر به وجهها وجسمها . ثم خرجت معه وركبت عربة صارت تنهب بها الشوارع حتى انزلتها أمام قصر كبير صعدت درجه وصارت في احدى غرفه الرحبة

فما كادت تستريح حتى جاءها نابوليون وجلس قريباً منها دون ان يلاصقها وأخذ معها في الحديث حتى اطمأنت واستأنست به حتى اذا اوشك النهار ان يطلع قال لها :

والآن يا حمامتي . اذهبي الى دارك واستريحي . لا تخشي النسر فسيأتي وقت تحينه فيه فينفذ لك جميع أوامرك

ثم ودعها الى الباب ووقف عنده وقال انه لن يفتحه حتى تعده بالمجيء في اليوم الثاني . فوعدته ذلك

وفي اليوم التالي جاءتها منه هدايا الزهر والألماس فتناولتها واذرتها في الغرفة وهي مغضبة . ولكنها مع ذلك ذهبت الى الوليمة وعندما انتهت السهرة بقيت كما فعلت في الليلة الماضية . وجاء اليها نابوليون والغضب يقدح من عينيه وقال لها :

لمَ لمْ تلبسي الالماس الذي ارسلته لك ؟ لمَ كنت تعرضين وتتحامين انظاري هذه الليلة . هذه مسبة لا اطيقها . يجب ان تعرفي أني منتصر عليك وانه يجب ان تحبيني . اجل يجب ان تحبيني . فاني قد رددت الى بلادك اسمها وحظها الآن في كفي

ثم اخرج ساعته وقبض عليها وقال : أنظري الى هذه الساعة . ان بلادك في يدي الآن مثل هذه الساعة واني أقدر على ان أمزقها شذر مذر اذا لم تجيبي طلبي واتركها شظايا كما أفعل بهذه الساعة

قال ذلك ورمى الساعة بكل قوته الى الحائط فذهبت شظاياها في كل جانب من الغرفة . وارتاعت ماري لهذا المنظر فاغمي عليها وافاقت وهي بين ذراعي نابوليون

وبعد ذلك صارت ماري خليلته لا يفارقها في حروبه او وقت السلام في باريس . واحبته هي حب العبادة فكانت تضحي بكل شيء من اجله ولم تكن تطمع في شيء سوى حبه حتى انه عندما

انهزم واستأسر في سنة ١٨١٥ ونفي الى جزيرة القـديسة هيلانة طلبت ان تذهب معه ولـكن حيل بينه وبينها . وعاشت مدة وجيزة بعده وماتت فقيرة وكانت آخر كلمة لفظتها في نزع الموت: نابوليون

وكانت كلما استأدت نابوليون وعده بتحرير بلادها يراوغها ويقول : « اني احب بلادك ولـكني لا استطيع ان اسفك دماء الفرنسيين من اجل بلاد اجنبية عنهم »

وقد ولدت لنابوليون ولداً هو الوحيد الذى عاش الى سن الشيخوخة من نسل نابوليون . وقد استخدمه نابوليون الثالث وعينه في المناصب العاليا فاداها بذمة وامانة

ماري لويز



ماري لوز

في سنة ١٨٠٩ كان نابليون في أوج عزه وسلطانه قد خضعت له أوربا كلها أو معظمها . وعندئذ أخذ صباح الثورة الذي تخضب به ينصل شيئه وصار يرتدي رداء الملوك ويحمل شعارهم

ويبحث عن زوجة تلد له ولي عهده الذي يحمل اسمه ويخلد ذكره

وكان الى هذا الوقت متزوجاً جوزفين تلك الارملة الجميلة التي عشقها وهو بعد ضابط فقير . فانفصل منها وحصل على طلاقها وأجال نظره في قصور الملوك في اوربا ينشد أميرة من سلالة ملوكية قديمة تكون اما للملك أو امبراطور يحمل اسم نابوليون

وكان لقيصر روسيا أخت جميلة فطلبها نابوليون من القيصر فابى أنفة من مصاهرة هذا الامبراطور المحدث واشفاقاً على أخته أن تقع بين براثن هذا النمر . فتحول عنه الى امبراطور النمسا والمجر ولم يكن له من ملوك اوربا وأمرائها من هو اعدى له منه . فقد حاربه خمس مرات وهزمه ودخل نابوليون مدينة فيينا على رأس جيشه الظافر واذاق أهلها ذل الهزيمة ومهانة الانكسار . فكان الامبراطور فرانسيس يكرهه كما يكره الانسان مبدأ أو مذهباً يريد أن يمحوه من الوجود

ولكن سياسة النمسا في ذلك الوقت كانت في يد الامير مترنيخ . وكان داهية عظيما . فلما علم برفض قيصر روسيا اغتنم هذه الفرصة وعرض على نابوليون أن يتزوج ابنة الامبراطور فرانسيس وكان يقصد من هذا الزواج ضمان العرش النمسوي وتأمين الامبراطورية من غزوات نابوليون وان كان في ذلك يضحي بهذه الفتاة العزيزة

ولم تكن هذه الفتاة ماري لويز قد تجاوزت بعد التاسعة عشرة من عمرها ولم تكن قد رأت نابوليون وانما كانت تسمع عنه

ما كان يحكيه أبوها وعمومتها وكانوا كلهم يدعونه « الغول »

وكانت مديدة القامة بيضاء يجلل وجهها شعر كستاني اللون الى البياض وكانت وجنتاها متوردتين يتدفق ماء الشباب بل الصبا من وجهها . وكان فمها واسعاً عليه طابع آل هابسبرج في تلك الشفة السفلى المتدلية التي ترى للآن في الفونسو ملك اسبانيا

وأدرك أبوها قيمة الاتحاد مع نابوليون فرضي بذلك . وقبل نابوليون الزواج وحدد له ميعاداً قريباً . وذهب الامبراطور فرانسز الى ابنته وكاشفها بهذه النية . فارتاعت لاول وهلة وسألتهم كيف كانوا يدعونه « غولا » وكيف تتزوج برجل هذه صفته

فاخذ أبوها في طمأنتها حتى اسكانت الى حظها . ورضيت بالتضحية بنفسها لاجل امان بلادها . وكان مما قالته لمترنيخ عندما كان يغريها بأن يقدم لها جميع ما تطلب : « لست أطلب سوى ما يأمرني الواجب أن أطلب »

وأعلنت بعد ذلك خطبة نابوليون لها وصارت فينا وباريس كلتاهما تتنافس في الاحتفال بالزواج القادم وتعد له معداته

وارسل نابليون في هذه الفترة خطاباً الى خطيبته قد امتزجت فيه لهجة المحب بلهجة السياسي الدائب في المفاوضة . قال :

« يا ابنة عمي

« ان الصفات الباهرة التي يتزين بها شخصك قد أوحت الى نفسي الرغبة في أن أخدمك وأكون على ولائك . وعندما عرضت رغبتي هذه على والدك الامبراطور ورجوته في أن يأتمني

على سعادتك كنت أمني نفسي بانك سوف تدركين العواطف التي دفعتني الى هذا العمل . فهل لي بأن املق نفسي وأقول بأن قرارك لن يكون عائداً الى الطاعة الابوية فقط ؟ ومهما يكن احساسك من ناحيتي أو ميلك اليَّ ضعيفا فني أريد أن أحتفظ بهذا الاحساس وهذا الميل وسأجتهد في أن أكون سبب مسرتك حتى اني من الآن املق نفسي معتقداً بانك سوف تستحسنين شخصي . وهذا غاية ما أريد أن أصل اليه ولاجل هذه الغاية أريد من سموك التعطف عليَّ »

وكثيراً ما فوجئت الاميرة وهي تبكي في تلك الفترة قبيل الزواج بايام . وقد قضى أبوها معها يوماً كاملا وهو يطمئنها ويقويها . وكان الجميع يشعرون أنها قد ضحي بها في سبيل سلامة الامبراطورية

وجاء ميعاد مغادرتها لفينا فاحتفل الاهالي بذلك احتفالا عظيما .

ومما يدل على حالتها العقلية في ذلك الوقت انها كتبت هذه الرسالة الى والدها عند ما وقفت العربات لاستراحة الخيول بعيد فينا :

« اني أفكر فيك على الدوام وسوف أعمل ذلك دائماً . فقد منحني الله القوة لأن أتحمل هذه الصدمة الأخيرة وفيه وحده أضع كل ثقتي . فهو سيكون في معونتي ويمنحني الشجاعة وبذلك أتقوى في تأدية واجبي نحوك اذ اني قد ضحيت بنفسي لاجلك »

وبهذه الحالة العقلية دخلت ماري لويز فرنسا . وكان نابوليون يذكر ماري انطوانيت وحاشيتها النمسوية وكراهة الفرنسيين لهذه الذكرى . لهذا أمر جنوده بمنع النمسويين المصاحبين للأميرة من

دخول فرنسا . فرجعوا من الحدود . وبقيت الأميرة وحيدة بين هؤلاء الاغراب وشعرت بوحشة بينهم آلمتها واعادت اليها ذكرى صباها وشبابها بين بني وطنها

فلما صار بينها وبين باريس نحو ستين ميلا تلقاها نابوليون في ليلة مكفهرة عاصفة ممطرة . فركب الى جانبها وهي لا تتبين وجهه حتى وصل الى قصره في ساعة متأخرة من الليل

ولم يكن قد تزوج بها بعد ولكنه لشراسة الجندي التي طبع عليها طالبها بالحقوق الزوجية في تلك الليلة . حتى اذا كان الصباح واستيقظت في الساعة الحادية عشرة لم تقدر على مبارحة سريرها

وهذه حقائق يشمئز منها الذوق وينبو عنها الطبع السليم . ولكن نابوليون نشأ على طبع الجندي تلذ له الغنيمة ويهيج نفسه السلب والانتهاب ففعل فعلته الشنيعة وقضى من أول ليلة على أي أمل في حب هذه الفتاة الغريرة له

وعاشا معاً في وقار الملوك . وكان نابوليون في سن والدها ولذلك لم يكن يأذن لرجل أن يخاطبها الا في حضرة احدى وصيفاتها

وفي عام ١٨١١ نال مبتغاه وولدت له زوجته ولي عهده « ملك رومية » ثم جاءت سنة ١٨١٢ وبدأ حملته المشؤومة على روسيا

وفي ذلك العام عرفت ماري لويز الكونت نيبرج . وكان رجلا نمسوياً وكان عدواً لدوداً لنابوليون ولجميع الفرنسيين . جرح في احدى المعارك ففقد احدى عينيه وتأثر وجهه بندوب الجرح فكان يخفي عينه وهذه الندوب بعصابة سوداء . وكان يمت الى

أسرة نبيلة في النمسا وكان شجاعاً مقداماً يجيد البراز ويفهم الاساليب السياسية ويعمل بعقله وقلبه في أن يعكس على نابوليون أغراضه . وكان مع ما أصاب وجهه من التشويه يجذب اليه النساء بحلاوة حديثه وشرف سمته ونبالة حركاته

ثم كانت سنة ١٨١٤ عندما ترك نابوليون السياسة والحروب وذهب الى جزيرة البا كأنها منفى اختياري. فقد رأى الساسة النمسويون أن زمان التضحية بفتاتهم قد انتهى وعقدوا النية على أن لا ترجع ماري لويز الى زوجها ثانياً . وذهبت ماري لويز الى فينا ولم ترَ نابوليون بعد ذلك

وعقدت لها حكومة النمسا دوقية بارما في ايطاليا بما يلحقها من الارضين والاملاك . وسافرت اليها بصحبة الكونت نيبرج

وكان نابوليون وهو في جزيرة البا يرسل في طلب زوجته وابنه فلا تصل الرسائل اذ كانت حكومة النمسا تتسلمها وتمنع وصولها . ورأى الكونت نيبرج أن ينتقم من نابوليون فصار يتودد الى ماري لويز يغني لها في لغتها ويتندر لها القصص ويتنزه معها في الجبال والوديان ويتلطف لها في الرعاية والخدمة . وكان قلبها أجوع ما يكون الى مثل هذه المعاملة بعد أن رأت من نابوليون جفاء الطبع وقساوته . ومهما نسيت فهي لم تنس تلك الليلة التي اغتصبت فيها قبل أن تتزوج الزواج الرسمي الذي هو من حق كل فتاة

لذلك مالت الى الكونت نيبرج وتزوجت به زواجاً سرياً بعد وفاة نابوليون وولدت ثلاثة أولاد قبلما مات سنة ١٨٢٩

ونسيت نابوليون ولم تعد تفكر فيه. ولما بلغها موته لم تعر الخبر أقل أهمية بل خرجت على الفور في نزهة مع السكونت نيبرج

اما نابوليون فكان في جزيرة سانت هيلانة يتحرق غيظاً لمنعه من مراسلة زوجته. ولم يكن يعرف قصة حبها لنيبرج ولكنه عندما عرف لم يقل شيئاً في ماري لويز ولم يقدح في عرضها

وقبيل موته قال لطبيبه: « ارجو ان تأخذ قلبي بعد موتي وتضعه في كؤول وتحمله الى بارما حيث حبيبتي ماري لويز. وارجو ان تخبرها بأني احببتها وان حبي لها لم ينقطع واخبرها بما رأيت وجميع ما يختص بمركزي وموتي »

ونكاد تكون قصة نابوليون وامرأته مأساة لولا أنها مشوبة بفظاظة نابليون وجمود ماري لويز. ومع ذلك ففيها عبرة جديرة بأن يفهمها كل انسان. وهي ان الحب لا يأتي اقتساراً ولا يؤخذ غصباً فان مفاتيح القلوب هي العطف والحنان والولاء

مدام دو ستايل

ليس في جميع ما الفته مدام دوستايل شيء جدير بالاعجاب . وهي انما نقرأ الآن للقيمة التاريخية التي لمؤلفاتها من حيث أنها دليل نزعة فشت قبيل الثورة الفرنسية وبعيدها . وهذه النزعة تتلخص في الميل الى رفع قيمة الحنـان والنظر الى شؤون العالم عن سبيله . ولم يكن الادباء في عصر مدام دوستايل يكبرون قدرها وانما كان يأتي احترامها من العامـة لأنها كانت متطرفة من أكثر العلوم والاداب تعرف شيئـاً يسيراً عن كل منها وتستطيع الـكلام او الـكتابة عنها بحيث تسترعي احـترام العوام واحتقار الخواص . ومما اذاع شهرتها ان نابوليون خاصمها ونفاها من فرنسا . ونزول نابوليون الى مخاصمة امرأة جدير بان يرفعها بعض الرفعة . وكانت ايضاً ابنة نيكر وزير المالية في فرنسا وقد اشتهرت امها بأنها وقت ان كانت في سويسرا عرفت المؤرخ الانجليزي الشهير جيبون وعلقته واوشكت ان تتزوج به

وقد قضت مدام دوستايل شبابها في باريس واختلطت بعلية الفرنسيين . وكانت منذ طفولتها مجدة في الدرس تقرأ كل ما يقع في يديها وترغب في معرفة كل شيء . فكانت تدرس التاريخ الطبيعي كما تدرس الادب وتقرأ في الاقتصـاد والقوانين كما تقرأ في التاريخ والفلسفة

وكان جميع الـكبراء من رجال السياسة او الادب في فرنسا يرون نذر الثورة قبـل وقوعها ويحتاطون لها . وكان نيـكر مثرياً

عظيما تخشي على ثروته ان تضيع اذا هبت العاصفة وازالت الاشراف عن اقطاعاتهم . فعقد الزواج لابنته على البارون ستايل هولستين سفيراسوج في باريس وذلك لكي تحتمي بدولته فيبقى لها مالها

ولم تعش كثيراً مع البارون فقد رزقت منه ولداً . ولما حدثت الثورة انضمت في ابتدائها الى العامة تروج دعوتهم وتنادي بحقوقهم. فلما افرط الزعماء في اضطهاد الاشراف ومن خالفهم في الرأي عادت فصارت ملوكية واخذت تؤوي اعداء الثورة الى السفارة الاسوجية معتمدة في ذلك على حرمة السفارات . وعرف رجال الثورة ما تفعل فهاجموها واضطروها الى الفرار من فرنسا حيث عاشت اكثر ايامها بعيداً عنها

وكان نابوليون يكرهها وقد امر بنفيها خارج البلاد . ويحكى ان ابنها ، وكان يبلغ الخامسة عشرة ، مثل امام نابوليون وتوسل اليه ان يأذن لأمه بالرجوع الى فرنسا . فقال نابليون :

« اذا اذنت لامك بأن تذهب الى باريس فاني اضطر الى سجنها بعد شهرين في احدى القلاع . ولست ارغب في ان اعاملها بمثل هذه المعاملة. فلتذهب اينما شاءت .فهذه اوربا كلها مفتوحة الابواب امامها . ها كم رومية والبندقية وبطرسبرج . واذا كانت تريد ان تؤلف عني مقالات القذف فلتذهب الى انجلترا حيث لا يكلفها هذا العمل شيئاً عظيما . اما في باريس فانها تكون قريبة منا اكثر من اللازم »

وقد احبت مدام دوستايل جملة رجال غير زوجها الذي

لم تحبه قط وانما تزوجت به مراعاة للمصلحة ليس غير . فقد عرفت هنري كونستان السياسي الاديب وعشقته وتبادل الاثنان الحب وان كان حظها منه اكثر من حظه . فقد كانت هي قصيرة ممتلئة جاحظة العينين فكان محبوها على حد قولها يحبونها اقل مما تحبهم. وعندما نفى نابليون هنري كونستان سنة ١٨٠٢ التقت به في المانيا وعاشا معاً مدة طويلة

وليس هناك ما يدل على انها كانت تخلص الحب لجميع من احبوها . فقد كانت تنفضهم من يديها واحداً بعد آخر . ففي سنة ١٨١١ مثلاً كانت سنها تبلغ الخامسة والاربعين فعرفت شاباً ايطالياً في الثالثة والعشرين من عمره يدعى روكا . فتزوجت به واشترطت عليه ان يكون الزواج سراً وان لا تحمل اسمه وذلك ضناً باسمها الذي شاع في اوربا . وقد ساء حظها في هذا الشاب اذ اصيب بالصمم بعد الزواج بمدة قليلة

وخلاصة القول ان مدام دوستايل لم تفلح كل الفلاح لا في الحب ولا في الادب وذلك لأنها كانت تطمع في عمل كل شيء ومعرفة كل شيء . وكانت تسوم نفسها من الجهد ما لا قبل لها به. فقد كانت لا تنام الا بضع ساعات في الليل وتقضي طول النهار في الكتابة فكتبت شيئاً كثيراً دون ان تحسن أو تجيد في بعضه . حتى لقد قيل ان وصيفتها كانت تسرح شعرها وهي لا تكف طول وقت التسريح عن الكتابة . واحبت عدداً من الرجال دون ان تخلص الاخلاص كله لأحدهم فكان حبها على الدوام أشبه شيء بنزغة

من نزغات الشهوة تهيج ثم تخمد

ولعل القطعة التالية التي كتبتها عن شقاوة الزواج من أحسن ما كتبت في جميع ما الفت من الكتب . قالت :

« في شقاوة الزواج نوع من المحنة يعدو طور جميع الآلام في هذا العالم . فان كيان المرأة يتوقف على الرباط الزوجي . والوحدة التي تعيش فيها المرأة الشقية في زواجها تجالد القدر وحدها وتحمل الى القبر وحيدة بلا رفيق يودعها أو يأسف عليها هي وحدة دونها وحدة السائح في صحاري جزيرة العرب . وعند ما تشعر المرأة بأن كنز شبابها قد انفق وذهب ضياعاً لا فائدة فيه وان هذه الأشعة الأولى لن ينعكس منها شيء في نهاية الحياة ، وعند ما تشعر بأنه ليس في ظلام الغسق ما يذكرها بضوء الفجر . . . عندئذ تثور النفس وتشعر المرأة انها قد حرمت من عطايا الله على هذه الارض »

وربما كانت بلاغة هذه الكلمة راجعة الى احساسها الشخصي فانها هي نفسها هذه المرأة

بيرون وتيريزا



بيرون

كان بيرون من أكبر شعراء انجلترا . كان ينظم الشعر عن سليقة عجيبة تؤاتيه في الاداء عن جميع ما تناوله من الموضوعات

وكانت حياته أيضاً أشبه شيء بقصيدة حافلة بمجازفات الحب والحرب والسياحة

وقد كان بيرون وهو بعد صبي يشعر بدوافع الغريزة الجنسية قبل أن يتم نموها فيه . فكان وهو في الثامنة من عمره متعلقاً بصبية تدعى ماري دف أشد تعلق . ولما بلغ العاشرة أحب ابنة عمه وعندما بلغ الخامسة عشرة أحب فتاة في السابعة عشرة حباً أعمى فكان يقفو أرها اينما ذهبت لا يسمع لنصيحة ولا يرعوي الى كلام أصدقائه وذوي قرباه

وقد ولد في يسار من أصل نبيل فهوى الشعر ثم احترفه . وما بلغ الرابعة والعشرين ونشر على الجمهور علياءته الكبرى : « تشايلد هارولد » حتى صار شاعر انجلترا الأول . وقد ربح من هذه العلياءة نحو أربعة آلاف جنيه تقويت عزيمته في الشعر والحب . فلم يكن له من شغل وسلوى سواهما يراوح بينهما حتى أجمها في النهاية كما يأجم الانسان نوعاً طيباً من الطعام قد لزمه مدة طويلة

وقام في نفسه في النهاية أن يحقق حياة الخيال التي يصفها في أشعاره فخلع عن نفسه رداء الترف وشخص الى بلاد الأغريق حيث انضم الى الجيش الأغريقي الوطني الذي تألف لطرد الأتراك واستقلال البلاد . . وبقي يجاهد حتى مات

وكان مما امتاز به بيرون صورة وجه قال عنها سير والتر سكوت القصصي المعروف : « انها شيء يحلم الانسان به » . فكانت النساء

يشغفن به لأول مرة يشاهدنه وكن يتصدين ويستهدفن له حتى ينلن منه كلمة مديح أو اشارة حب . وزاره أحد الألمان فقال ان النساء يحاصرنه حصاراً لافتتانهن به

وكانت لذلك حوادث حبه عديدة كان هو فيها المطلوب لا الطالب . فقد رأته السيدة كارولين لام زوجة رئيس وزراء انجلترا فهامت به أشد هيام حتى كان يهرب منها . وعند ما رأته لأول مرة صاحت قائلة : « هذا الوجه الشاحب هو ما قدرته لي التقادير » فلما أنست به قليلا قالت : « كله سوء وكله جنون وكله خطر »

وكان مما يغيظ بيرون منها أنها كانت تنظم وتطلب منه الاطراء الدائم لنظمها وجمالها . وكانت تلح عليه في حبها حتى سئمها وصار يهرب منها . ودخلت عليه مرة متنكرة في هيئة غلام ولباسه . ورأت منه اعراضاً فقبضت على المقص وحاولت أن تطعن بطنها به

وتخلص منها بيرون أخيراً في سنة ١٨١٥ اذ عقد زواجه على آنسة انجليزية . ولم يكن الدافع الى هذا الزواج حب صادق لها وانما كانت الحقيقة انه اعتزم أن ينتهي من حياة الحب المحرم ونزغات الهوى ويدخل في حظيرة المتزوجين الهادئين . ولكنه لم يحسن الفراسة في هوى قلبه ونزعة نفسه . فقد كان يجيب على أسئلة الكاهن وقت الأكاليل أجوبة خطأ وتنأت من لسانه عبارات يعتبرها الناس في مثل تلك الظروف انها نذير شؤم للحياة الزوجية

وذلك لأنها دليل على أن العقل الباطن لا يطابق العقل الظاهر في أغراضه ومناحيه

وافترق الزوجان بعد ولادة أول طفلة لهما فراق الأبد . وأخذ الناس بالتشهير بيرون لسوء معاملته زوجته . وصار أكثرهم يتحامون معاطاته حتى هجر انجلترا الى القارة الأوربية وقضى معظم حياته بعد ذلك بعيداً عن بلاده

وقد كان بيرون فوق حدة شهواته لا يعير الآداب العامة قيمة . ومما يعزى اليه أنه عشق اخته . وقد كان يظن أولا أن قالة السوء هم الذين أذاعوا عنه هذه الفرية ولكن تبين من خطاباته التي نشرت حديثاً ان التهمة ثابتة عليه لا وجه لنقضها . وفي اشعاره ما يوهم القارىء أنه يسوغ هذا العشق

وفي سنة ١٨١٥ كان في مدينة البندقية فالتقى بسيدة متزوجة تدعى تيريزا كان زوجها كونتاً من أشراف ايطاليا . وكانت هي في التاسعة عشرة بينما كان روجها في الستين . ولم يكن وجهها يجري على النمط الايطالي اذ كان أبيض شديد البياض وشعرها أصفر ذهبياً وكانت سحنتها اشبه بأهل شمال اوربا منها بأهل ايطاليا

وما هو أن عرفت الشاعر وجالسته مرات قليلة حتى رأت نفسها قد علقته ولم تعد تقدر على فراقه . نقدكانت قبلا تمزح بالعشق أما الآن فقد شعرت انها امة قد اسرقها حب بيرون فاذا نظرت اليه وتملت من طلعته شعرت كأن جسمها يتوهج بالرغبة فيه

وكان بيرون في ذلك الوقت قد جاز الثلاثين وكان قد اعتاد الخمر والترف فظهرت عليه أعراض السمن وبدت عليه دلائل الفتور والخمول وذهبت عن وجهه تلك المسحة الروحانية التي كان يفخر بها الشاعر قبلا

وفرت تيريزا من زوجها وعاشت مع بيرون في بيت واحد ولم يفترقا بعد ذلك الا عند ما أراد بيرون أن يبدأ حياة جديدة في تحرير اليونان من الأتراك . واستفاد بيرون من عشرة تيريزا التي قطعته عن ادمان الخمر واصلحت عاداته التي كان قد أفسدها الترف . ولم يكن بيرون يحبها أولا ولكنه عند ما رأى اخلاصها وتعلقها به مع تلك السحنة الشمالية التي يحبها الانجليز تفتح لها قلبه وعشقها هو الآخر

وكان زوجها يحاول طول ذلك الوقت أن يقتل بيرون فكان يكتري له الأوغاد لكي يغتالوه فكان بيرون لا يسير إلا مدججاً بالسلاح

وقد كانت تيريزا تؤثر حبيبها على نفسها تحثه على النظم وتعمل لاذاعة شهرته وتخلص له الخدمة والولاء وتمنعه عن متابعة عاداته الرديئة . وربما كانت هي الوحيدة من النساء اللاتي عشقن الشاعر ولم ترج من عشقها اللذة والتمتع . فقد كانت تنظر في كل ما تفعل الى مصلحته دون مصلحتها

قال أحد المترجمين بحياة بيرون : « لقد أصلحته ورفعته وانتشلته من الحمأة ووضعت على رأسه تاج الطهارة . ثم لما

استنقذت هـذا القلب العظيم لم تعمد الى احتكاره لشخصها وانما تسخت وجادت به الانسانية »

وعاشت بعده ٢٧ عاماً وماتت في سنة ١٨٧٣ ونشرت كتاباً عنه ضمنته ذكرياتها عن أيام الحب التي قضتها معه في ايطاليا . وبلغ من ولائهـا له انها زارت وهي عجوز فانية بيت بيرون في انجلترا واذرفت الدموع لذكرى حبيبها

اهواء جورج صاند



جورج صاند (وهو اسم مستعار لادبية شهيرة)

لم يكن لجورج صاند هوى واحد وانما كانت لها أهواء. تقسم الحب قلبها وتنقل من خليل مملول الى آخر طريف لا تمضي عليه برهة حتى تصير طرافته سآمة وحبه قلى. وكان لها قدم راسخة في الكتابة وبخاصة في الفن القصصي الذي كانت تبذ فيه فيكتور هيجو. فقد كان هيجو لغرامه بالصناعة اللفظية وتيهه بنفسه يميل الى الضخامة والابهة في وصف أشخاص قصصه. فاذا وصف شقياً بالغ في شقائه حتى يخرج عن الصورة المألوفة للشقاء. أما جورج صانه

فكانت كاتبة ملهمة ترسم الناس كما هم وتخطط أخلاقهم تخطيطاً صحيحاً فاذا قرأ الانسان احدى قصصها شعر أنه في وسط اناس حقيقيين يقرأ قلوبهم وتطالعه سرائرهم في أحاديثهم وسلوكهم

وُلدت جورج صاند سنة ١٨٠٤ وكان اسمها اورور . وكان أبوها ينتمي الى اسرة شريفة قديمة في حين أن امها كانت من العامة ولذلك لم تعش اورور كثيراً مع والدتها . فان جدتها الشريفة أبت أن تؤوي هذه المرأة العامية الى بيتها . ولكنها عنيت أكبر عناية بتربية اورور فعينت لها معلماً خاصاً ثم أرسلتها الى مدرسة ملحقة باحد الاديار في باريس بقيت فيها مدة طويلة أتقنت فيها اللغة الفرنسية وانكبت على قراءة آدابها القديمة والحديثة

ونشأت اورور على أذواق غريبة قلما تنشأ عليها الفتيات . فقد تخلقت باخلاق الرجال تلبس لباسهم وتدخن مقادير هائلة من التبغ . وكان لها أخ رزق به أبوها عن طريق غير شرعي تعلمت منه ركوب الخيل كما يركبها الرجال حتى لهجت الالسنة بانتقادها

وماتت جدتها سنة ١٨٢١ وأوصت بترك جميع أموالها لها وكانت تقدر بمبلغ ٢٥٠٠٠ جنيه . فرغب في زواجها مزارع سليل بيت شريف قديم قريب من مدينتها نوهان في أقليم أندر . فتزوجت منه في سنة ١٨٢٢ زواج المصلحة لا الحب ورزقت منه بعدة أولاد . ولكنها سئمت العيشة الريفية ولم تكن ترى في زوجها شيئاً من رقة الطباع وذكاء القريحة وتنبه الذهن وهي صفات كان لها منها حظ كبير في نفسها . وكانت هي في حديثها تميل الى الفكاهة والمداعبة

بينما كان هو يكره ذلك . فلم تتفق رقتها وجفوته حتى لقد حدث بينهما مرة جدال انتهى بأن عمد الى ضربها فلكمها على وجهها بقبضة يده جملة لكمات كانت القاضية على علاقتهما الزوجية

وارتضت على أن تترك أولادها عنده وترحل هي الى باريس مع ابنتها فقط وتترك له ريع جميع أملاكها لا تأخذ منه سوى ٦٠ جنيهاً في العام

وعند ما ذهبت الى باريس ذهبت الى جريدة الفيجارو فاشتغلت فيها بأجر بسيط . ولم يمض عليها زمن كبير حتى عرفت الحي اللاتيني حيث وطن الادباء فنفضت عن نفسها جميع اللياقات التي يحتمها العرف على النساء ولبست لباس الرجال وتخلقت باخلاقهم تغشى القهوات والحانات وتشرب النبيذ الحار وتدخن السيجار الكبير

وعرفت في ذلك الوقت صحفياً صغيراً يقل عنها في العمر نحو سبع سنوات جمعت آصرة الصحافة بينهما فتآخيا وانتهت الزمالة بصداقة . وكان في هذا الصحفي الذي يدعى جول ساندو فتوة وصباحة تغري بالحب . فما هو أن جثا أمامها مرة يطلب اليها أن تمنحه قلبها حتى لبت طلبته وقام في نفسها له هوى ربما كان أول اهوائها . فقد استسلمت للحب وانتشت به والتذته حتى كتبت في ذلك تقول :

« اني أود أن اشعرك بهذا الاحساس ــ احساس الفرح بالحياة وقوتها التي أشعر بها في عروقي . الحياة . أجل الحياة . ما أحلاها وما أطيبها على الرغم مما فيها من عنت وأزواج وديون وأقارب وقالة

سوء وآلام ومكايدات . هـذه الحياة مسكرة . وهذا الحب . أن احب وأن احب . هذه هي السعادة . هذه هي السماوات »

وقد وضعا بالاشتراك قصة تدعى : روز وبلانش . وجعلا اسم مؤلفها جول صاند . ونجحت القصة نجاحاً شجعها على احتراف الفن القصصي فصارت بعد ذلك تؤلف وحدها وجعلت اسمها في التأليف جورج صاند . ووضعت قصة اخرى لفتت نظر النقدة والادباء ونالت اطراءهم حتى اقترحت عليها مجلة العالمين أن تعطيها في العام ١٦٠ جنيهاً لكي تخصها بمقالاتها وقصصها وعرضت عليها مجلات اخرى أن تكتب لها

وكان اهم ما يجذب النظر الى قصصها أنها كانت تدعو الى « الحب الطليق » وتدافع عنه . وقد أثرت عنها عبارة قالتها عقب انفصالها من زوجها وهي « ليس هناك ما يسوغ للانسان أن يمتلك نفس انسان آخر كما ليس له أن يمتلك شخص العبد »

وكانت تقول ان الرابطة بين الرجل والمرأة يجب أن تكون مقدسة اذا كان الحب قد قدسها . ومن الحكم التي اشتهرت عنها قولها في التمييز بين الحب والشهوة : « الحب يعطي أما الشهوة فتأخذ »

وكانت في ذلك الوقت في السابعة والعشرين من عمرها ولم تكن جميلة وانما كان فيها شيء من الملاحة والخفة . فقد كانت ربعة الى النحافة وكان بعينيها شيء من الجحوظ . وكان في حركاتها رشاقة تفتن الناظر فيها شيء من الجراءة والخوف معاً . فاذا تكلمت تفتحت فيسقط بذلك حاجز الخجل بينها وبين من يخاطبها لأول

تعارف . فاذا جودلت واستثيرت تدفقت فتنكشف عنـدئذ شخصيتها عن طبيعة حافلة بالـكنوز تائقة الى بذلها والسخاء بها

وانتهت صلتها بجول ساندو بحادثة غريبـة . فقد سافرت الى زوجها لـكي ترى الاولاد وعادت دون أن تؤذنه قبلا بعودتها ولعل غرضها كان أن تفاجئه مفاجأة الحبيبين . ولـكنها عند ما دخلت عليه وجدته يعانق فتاة . فانتهى هذا الهوى الاول بقطيعة نهائية

ووقعت خيانة حبيبها في نفسها أشد وقع حتى شعرت بعدهـا كأن عواطفها قد ماتت . فصارت تتجنب الرجال وتتحامى لقاءهم وتعرفت الى فتاة ممثلة تدعى ماري دورفال كانت ترافقها وتلازمها حتى ذهب عنها أثر تلك الصدمة

وبعد سنوات من هـذه الحادثة عرفت الـكاتب الشاعر القصصي الفرد دو موسيه وكان غاية في الجمـال والذكاء وكانت جورج صاند أكبر منه بسبع سنوات حين التقت به . وتعلق كل منهما بالآخر . وذهبا الى احـدى ضواحي باريس لـكي يقضيا ـ كما قالت جورج صاند ـ شهر العسل ... دون زواج . وبعد ذلك عقدا نيتهما على رحلة طويلة في ايطاليا وسافرا الى البندقية حيث استأجرا مسكناً فيها وأقاما مدة قصيرة انتهت بقطيعة عاجلة . وكان سبب ذلك أن دو موسيه أصيب بمرض أقعـده ولم يكن حب صاند فيه الا حب الشهوة . فقد كان شاباً في الثالثـة والعشرين من عمره وكانت هي في الثلاثين . فلمـا مرض سئمته . وقد مرضته بمعونة طبيب ايطالي وسيم يدعى باجالو شفاه من مرضه وشفاها هي من حبه

وعلقت هذا الطبيب فهجرت حبيبها السابق في البندقية يعض أصابع الندم وسافرت هي مع هـذا الطبيب الايطالي الى باريس . وشاعت حكاية حبها مع الفرد دو موسـيه والمسلك السافل الذي سلـكته معه فصار يحذرها كل أحد ويتحامى مراوداتها جميع الادباء وقد حاولت أن تصيد قلب فكتور هيجو فابى وحاولت أن تفعل مثل ذلك بدوماس الـكبير فقهقه في وجهها . ولم تنل شيئاً من بلزاك

وحاولت أن تصلح ما بينها وبين الفرد دو موسيه بعد ذلك حتى جزت شعرها واعطته له علامـة ولائها وأمانتها ولـكنه منذ حادثة البندقية لم يكن ينظر اليها الا بالتوجس والحذر

ونالت مكانة كبيرة في الادب حتى ربحت منـه نحو خمسين الف جنيه . وقدكان هذا مبلغاً كبيراً في عصرها . وعند ما أوشكت أن تشعر أن سوقها في الحب قد كسدت نالت حظوة في عيني الموسيقي العبقري العظيم شوبان فعاشت معه نحو ثماني سنوات . وقد زار كلاهـا في بدء غرامهما جزيرة ميورقه فاصيب شوبان بسعال حتى كتبت عنه جورج صاند تقول : « أنه يسعل برشاقة عجيبة » وقالت عنه أيضاً : « انه كثير التقلب وليس فيه شيء ثابت لا يريم عنه سوى سعاله »

وقد كتبت مجلدات عن علاقتهما وكان لجورج صاند نفسها نصيب كبير في ما كتب اعترفت فيه بأشياء وتفصيلات كثيرة عن علاقتهما بما عهد الناس فيها من الصراحة

وانقطعت علاقتهما في سنة ١٨٤٧ وقال شوبان عنها في ذلك

الوقت : « لم ألعن احداً قط ولـكني سئمت الحياة حتى أراني اكاد العنها » ومات شوبان في سنة ١٨٤٩

وبموته تغير خلق جورج صاند فهدأت طبيعتها وتحول نظرها عن متجهه الاول . فقد صارت من حيث العواطف كالبركان الميت في حين ان ذكاءها تنبه . فاخذت تكتب قصصاً ساذجة عن الحياة الريفية وقصصاً أخرى للاطفال غاية في الاتقان والبراعة، وماتت سنة ١٨٧٦ فكان لموتها دوي عظيم في جميع أندية الادب في أوربا

ويحسن بنا ان نختم مقالنا هذا بكلمة قالها عنها بلزاك وهـو استاذ في استكناه النفوس . قال :

« كانت انثى تعاش عيشة الاعزب من الرجال . وكانت أديبة سخيـة ولية طاهرة . وكانت صفاتها السائدة صفات الرجل وعلى هـذا يجب ان لا ننظر اليها نظرنا الى النساء . وكانت أماً طيبة يعبدها أولادها . أما من حيث الاداب فقد كانت ننظر اليها نظر الشاب في سن العشرين . وذلك لانها كانت في سويداء قلبها طاهرة بل كانت أكثر من ذلك — كانت حيية خجولا . لم تكن هـذه الفوضى البادية على خلقها الا شيئاً ظاهراً على السطح فقط وما نزقاتها وطيشاتها الا عنوان المجد في أعين اولئك الذين لهم نفوس شريفة »

وهذا حكم غريب ولـكن بلزاك كان يعرفها أكثر مما يعرفها عامـة الناس وكان ذا بصيرة نافذة الى النفوس والقلوب يعرف مستكناتها ويقرأ ما تضمره مما تظهره

كارليل وزوجته



كارليل

كان كارليل من رجال الأدب الانجليزي في القرن التاسع عشر وكان يعنى بانتقاء الألفاظ يتخير منها ذوات الرنين الفخم والصوت الضخم وكان يبعد في هذا حتى يسف ويبهرج . ولكنه كان مع ذلك يفكر تفكير العبقري ويستشف الحقائق من اسرار

الاوهام ويخلص في تفكيره اخلاص العابد في صلاته . وهو أول أديب انجليزي عني بالادب الالماني عناية جدية وعرّفه الى امته . وقد الف جملة كتب خالدة أهمها كتاب الثورة الفرنسية وكتاب الابطال وفريدريك ملك بروسيا

وتؤثر عنه حكم وأقوال بارعة هي مضرب الأمثال الآن عند الكتاب وباعثة التفكير عند جملة القراء . فمن ذلك قوله :

« انما الانسان الحي أحجية ظاهرة . فهو يمشي بين أبديتين . ولو لم نكن عمياناً كالخلد لقدرنا انسانيتنا بالخلود ولما صارت قيمة مركز الشخص ونفوذه وما اليهما الا كلا شيء . فاذا قلت انك انسان فقد قلت كل شيء ومن فضل القول بعد ذلك أن تقول انك ملك أو سمكري »

وقوله : « أليست حقيقة الفكر أنه وحي ؟ »

وقوله : « اذا فكرت وأنضجت الفكرة هل تجد شيئاً أعجب من شيء ؟ اني أنا لم ارَ احداً قام من بين الموتى ولكني رأيت آلافاً قاموا من العدم . وليست بي قوة تحملني طائراً الى الشمس ولكن لي من القوة ما أرفع به ذراعي وهذا العمل ليس أقل غرابة من ذلك »

نشأ كارليل في عائلة أمية في اسكوتلانده وقد انتظم في سلك طلبة الدين بنية أن يصير راعياً لاحدى الكنائس ولكنه لم يسر الى نصف الطريق حتى عرف من سريرة نفسه أنه لم يخلق لهذا المنصب . فتحول عنه الى الادب وسار الى أدنبرج حيث قرر أن يكتب ليعيش ويعيش ليكتب

وعرف وهو في أدنبرج فتاة تدعى مس ولش كانت متطرفة من بعض العلوم والآداب تغشى أندية الادباء وتكثر من المناقشة والبحث وكانت الى ذلك جميلة ممشوقة . فلما تعارف الاثنان رغب كل منهما في التزوج بالآخر . فقد رأت فيه الفتاة أمائر العبقرية والشهرة المستقبلة ورأى هو فيها فتاة ذكية جميلة فاتفقا على الاقتران

وتم زواجها سنة ١٨٢٦ وكان عمرها ٢٦ عاماً أما عمره فكان ٣٢ عاماً . وكان كلاهما يحب الآخر اذ لم يكن كارليل يطمع في شيء من هذا الزواج اذا لم يكن يحبها . ولكن من الناس من يتهم مس ولش بأنها تزوجته وهي لا تحبه وانما كانت ترمى الى اكتساب الشهرة باقتران اسمها الى اسم أديب كبير لا بد أن سيشتهر قريباً . ولكن يرد على هؤلاء بأنها تزوجته وهو في فاقة بالغة بحيث أنها ضحت براحتها وعانت معه صنوف الآلام وهي تخدمه خدمة العبيد عدة سنين . فان كانت قد أدركت بذكائها أنه سيشتهر وانها ستنتفع من هذه الشهرة فهي لا بد أيضاً قد ادركت أن هذه الشهرة بعيدة وربما لا تتحقق مطلقاً

وكلا الفرضين جائز وانما دعانا الى افتراضهما أن زوجة كارليل عانت في زواجها آلاماً عدة واتهم زوجها بالفسوق والفظاظة والخروج عن طور المروءة . فان كانت قد تزوجته عن حب واخلاص فعدم اتفاقهما بعد ذلك من سيء الصدف التي قد يكون فيها كارليل مسئولا أو غير مسئول . أما اذا كانت قد تزوجت به وهي لا تحبه فقد رفعت تبعة شقائها عن كارليل

وعاش الزوجان في بدء زواجهما في كوخ منفرد في نجد مقشعر شمال ادنبرج لا ينبت فيه الا الضئيل من النباتات . وكانا وحيدين لا يؤنسهما انيس سوى أخ لكارليل كان قد ابتنى كوخاً قريباً من كوخهما . وأخذت الوحدة تفعل افاعيلها في أعصاب الزوجة . فقد كانت تقوم بأداء جميع ما يحتاج اليه البيت ولم يكن كارليل ممن يرتاحون الى مؤاسة الزوجة وبخاصة اذا كانت هذه المؤانسة تنطوي على جدال علمي أو أدبي . لأن كل لذته في ذلك الوقت بل كل عمله كان ينحصر في القراءة والكتابة والتفكير . وهذه الاعمال جميعها تحتاج الى الوحدة

وأخذت روجته لكي تهدىء أعصابها تتعود معاطاة الشاي والتبغ والافيون . ولكن هذه المخدرات لم تكن الا لتزيد التوتر في اعصابها . فكانت حياتها تتراوح بين توتر قد يكون مصحوباً بتهييج وبين اعياء قد يبلغ حد الخور والمرض

وانتقلا بعد ست سنوات من كوخهما إلى لندن . وكان يزورهما لورد اشبرتون وزوجه . فقام في ذهن زوجة كارايل أن زوجها يعشق روجة هذا اللورد وصارت الغيرة تأكل في صدرها كالسوس حتى كانت تقضي الليالي وهي مسهدة لفرط اهتمامها لهذا الامر . والاغلب أن هذه الغيرة لم تكن سوى نتيجة تهيجها وضعف اعصابها لان كارليل كان على خلق عظيم . وكان اللورد اشبرتون يزوره ويستزيره دون أن تدخل الى قلبه أقل ريبة

وماتت قبل وفاة زوجها بنحو ١٥ عاماً . ويقال ان كارليل

حزن عليها حزناً عظيماً وتذكر ما قاسته معه فاذن للمؤرخ فرود ان يكتب تاريخ حياتها بجمعه من الخطابات المتفرقة المرسلة اليها منــه أو من غيره والمرسلة منها اليه أو لغيره من الناس . وقد فعل ذلك فرود واستخرج من هذه المجموعة أن كارليل أساء معاملتها

وهناك من يعزو آلام هــذه الزوجة الشقية الى انها كانت تشتهي أن يولد لها ولد . فلما لم تنل مأربها من ذلك تحولت هــذه الشهوة المحبوسة وانطلقت في ميادين أخرى فصارت تكايد زوجها وهو يكايدها حتى ساءت العشرة وفسدت بينهما الزوجية

ولــكن من الخطابات التي أرسلتها إلى زوجها ننقل هذا الخطاب التالي وهو لا يقرأه رجل الا ويشعر بأن فيه من التعبيرات ما يدحض هذه التهمة :

«حبيبي — لقد قلت أنك ستسأم واني ارجو في قلبي انك الآن تسأم . فما احلى أن أشفيك من هذا السأم بالقبلات عند ما أعود . فستأخذني وتسمع مني كل صغيرة جرت لي وسيخفق قلبك عند ما تعرف مقــدار اشتياقي لــكي ارجع اليك . يا أعز أعزائي ويا أحب أحبائي ! ليباركك الله . اني أفــكر فيك في كل ساعة . في كل لحظة . واني أحبك وأعجب بك كاعجابي باعظم شيء . ليتني الآن عندك فاطوقك بذراعيّ واجعلك تنام نوماً هنيئاً ما شعرت بارق منه منذ سافرت . لك المساء الخير . اذكرني في أحلامك »

وخلاصة القول وارجحه أن كارليل لم يسيء الى زوجته وانما كانت ظروف صناعته تحبب اليه الوحــدة . وهذا سر ما تكرهه

المرأة في زوجها . ولم يرزقا ألاطفال وهم سلوى الام وعزاؤها وقت فتور الحب . ثم كانت عادة تعاطي المخدرات وهي وحدها تكفي لهدم أقوى الاعصاب . فكانت هذه الظروف مجموعة علة شقاء هذين الزوجين وسبباً في ذهاب حبهما السابق

فيكتور هيجو ومدام درويه



هيجو

الادباء صنفان . أحدهما يرمي الى غاية فلسفية أو الى مثل أعلا يتحرى في أكثر ما يكتب أن يبلغها ويحث غيره على بلوغها . فهو يعد نفسه مركزاً للكون قد تمركزت فيه مقاصده العليا فيرى من ذلك أن واجبه الحتم يقضي عليه أن يحقق هذه المقاصد لأنها

ليست مقاصده فحسب بل هي مقاصد الكون أيضاً . فهـذا هو رجل الفن

وثم صنف آخر ليس له مثل أعـلا ولا غاية فلسفية . تعنيه الصيغة فلا يبالي بالغاية قصاراه أن يترنم ويشدو . فاذا كتب ذهب جهده في رصف الالفاظ وتنسيقها وتنميق عبارته وتزيينها . فهـذا هورجل الصنعة أدبه أدب الفسيفساء والدنتله

وكان فيكتور هيجو من هـذا الصنف الثاني يؤلف القصائد والقصص والدرامات فيصوغها أحسن صياغـة يجيد حبك العبارة ويأتي بالعجب في تشبيهاته واستعاراته ومجازاته . ولـكنه كان في جميع ما كتب خلوا من الغاية الفلسفية . والناس في كل مكان وبخاصة اذا كانت عواطفهم تسود عقولهم تفتنهم الصنعة في الكتابة لأنهـا نوع من أنواع الشدو والترنم . فللاسلوب الحسن المحبوك المزين ايقاعات تشبه ايقاعات الموسيقى تبعث في النفس السرور فـكان فيكتور هيجو محبوباً لهذا السبب عند العامة مشهوراً بينهم وقد عاش مدة طويلة واشتغل بالسياسة فصارت حياته ومؤلفاته رمزاً ودليلا على فترة طويلة من الزمن في تاريخ فرنسا . وهذا وحده هو ما سيضمن بقاء مؤلفاته وكتاباته واعتبارها سنداً من أسانيد تاريخ عصره

وكان مما يتسم به هيجو فوق اتقانه الصنعة وتماديه فيها واغراقه في الانـكباب على رصف الالفاظ أنه كان لا يدري معنى الفكاهة فـكان لذلك لا يلحظ السخف الذي يحدثه الاغراق في الصنعة .

وكان أيضاً على شيء كبير من الغرور والتيه فلا يأبه للنقد .

حدث مرة أنه وضع قصة تدعى « الرجل الذي يضحك » وجعل أحد أفرادها من نبلاء الانجليز ودعاه باسم توم جم جاك . وكان هذا الاسم أشبه بالمهرجين منه بالنبلاء . فانتقد عليه ذلك أحد الانجليز في لطف وكياسة . فما كان من هيجو الا أن شمخ بأنفه منكراً عليه ما لاحظه مدعياً أنه يدرك من الذوق في التسمية عند الانجليز أكثر من هذا الانجليزي . .

وفي كتاب آخر أخطأ في اسم الموسيقى الاسكوتلاندية المعروفة فكتبه Bugpipes . فلاحظ ذلك عليه أحد الاسكوتلانديين وطلب اليه تحرير اللفظة بأن يجعل الحرف الثاني a بدلا من u . فابى وتعنت وكابر بان اللفظة يجب أن تكون كذلك

وكان هذا التيه هو الذي جعله ينتمي في الاصل الى الجمهوريين لأنه لم يكن يطيق أن يكون في فرنسا امبراطور لا يقف واياه على مستوى واحد . وكان مع أنه جمهوري في المبدأ يتمحل الحكايات والاباطيل لكي يثبت أنه من بيت نبيل قديم . وذلك مع أن جده كان نجاراً وكانت احدى عماته متزوجة من خباز وعمة أخرى له متزوجة من حلاق وأخرى له كانت خياطة . ولو كان هيجو ديموقراطياً حقيقياً لافتخر بحقيقة نسبه ولكنه كما قلنا لم تكن له غاية فلسفية في هذا العالم وانما كان يبغي الشهرة برصف الالفاظ والتدجيل على العامة

ولد في سنة ١٨٠٢ وشغف في صباه بالشعر فنال عدة جوائز

عليه وذكرته الندوة الفرنسية في سنة ١٨١٧ . ولما بلغ العشرين وقع في هوى فتاة تدعى اديل فوشيه كانت حوراء دعجاء على رأسها اكاليل جثل من الشعر الاسود وكان بها حياء يغري ورشاقة تفتن من ينظر الى حركاتها . فتعرف فيكتور هيجو الى أبويها وصار يكثر من زيارتهما حتى ادركت أم الفتاة أنه عالق بابنتها . ولم يكن للشاعر دخل ثابت تعتمد عليه عائلة في المعيشة فلما اقترح على الابوين أن يتزوج ابنتهما رفضا واعتلا عليه بصغر سن الفتاة وأنها لا تملك شيئاً وأنه ليس له صناعة . وحدث أن الملك لويس الثامن عشر قرأ بعض قصائد فيكتور هيجو فأعجب بها ورتب له معاشاً سنوياً قدره ٤٠ جنيهاً . وكان قد باع ديوانه الاول في تلك السنة فربح منه ٣٠ جنيهاً ففرح بذلك وذهب الى أهل اديل وأخذ يلح في زواجه الفتاة ويحتج بأنه لا بد ناجح في الادب وان معاش الملك باكورة دخله العظيم الذي يتوقعه من رواج أدبه

وتم الزواج وعاش كلاهما مدة طويلة ورزقا أولاداً فكان بيتهم مثال البيت السعيد وكان «صالونهم» مزار الادباء وعلية الفرنسيين ونجح فيكتور هيجو كما توقع وذاع اسمه وكبر دخله

وحدث أنه كان ممن يترددون على الصالون أديب معروف يدعى سانت بوف كان قد مدح بعض كتب هيجو فاحبه الشاعر وصار يقبل عليه ويفتح له صدره ويبسط له مائدته . فكان يقصد الى داره كل يوم وقد لا يجد الشاعر هنالك فيجالس زوجته ويأخذان في أطراف الاحاديث وشجونها

هـذا هو الواقع الذي كان يعرفه كل انسان يتردد على دار فيكتور هيجو . ولـكن سانت بوف كان سافلا بل كان غاية ونهاية في السفالة . فقد نشر كتاباً قال فيه أنه عشق مدام هيجو . ولو صح هذا العشق لـكان أحرى به أن يخفيه عن الناس ضناً بكرامة هذه المرأة أن تبتذل في الافواه وبخاصة اذا كان يحبها . ولـكن من الاسرار ما يحزب صاحبه على البوح ولا يفتأ يعنته حتى يفشيه

وهنا جدير بنا أن نقف هنيهة وننظر في تلك الطبيعة اللاتينية التي يتسم بها أهـل جنوب أوربا وتقابلها بطبيعة الامم الجرمانية الانجليزية التي يتسم بها أهل شمال أوربا . فادباء اللاتين يتفتحون ويصارحون القراء ويكشفون عن قلوبهم لا يعندون في ذلك باي اعتبار أدبي . وهذا دأبهم من قديم ومن حديث . فان اعترافات سان اوغسطين وجان جاك روسو تدل على ذلك كما تدل أيضاً عليه كتابات الفرد دو موسيه وجورج ساند وهـذا الاديب الايطالي دانونتسيو الذي باح بحبه للممثلة المعروفة اليانوره دوز . وهـذا بخلاف ما يحصل في الامم الشمالية حيث الطبائع أميل الى الـكتم واقدر على حفظ السر واكره ما تكون للفضائح يظهر عليها الجمهور وتقف عليها العامة . فقد مات بارنل أسى وكمداً عندما ذاعت عنه قصة غرامه باحدى السيدات . ومات اوسكار وايلد غمـاً وجزعاً عندما اشتهرت عنه قضية فسق

ولو كان سانت بوف انجليزياً ووضع مثل هذا الـكتاب لما لقي من الجمهور سوى البصق في وجهه ومن المحاكم سوى الحبس السريع

فلما تلطخت مدام هيجو بهذا العار سقطت من عين زوجها . ولم يكن هناك ما يدل على أن القصة التي ذكرها سانت بوف صادقة ولكن الجمهور صدقها وكان هذا كافياً لأن ينض من كرامة فيكتور هيجو ويقرح في صدره . وقد كظم غيرته واغمض عينه على القذى وعاش مع روجته محافظا على جميع الظواهر . والحقيقة ان تيهه وغروره منعاه من أن يعترف بوقوع هذه الاهانة أمام الجمهور

وحدث في سنة ١٨٣٣ بعد هذه الحادثة أن زارته في أحد الايام فتاة من المشتغلات بالتمثيل تدعى مدام درويه وطلبت اليه أن يخصها بتمثيل أحد أشخاص دراماته التي كان على وشك أن يقدمها لاحد التياترات

وكانت هذه الفتاة حاصلة على نصيب كبير من الجمال رآها تيوفيل جوتييه الكاتب المعروف فوصفها وصف المدله بجمالها في قطعة نثرية كأنها مقطوعة من الشعر . وكانت في بدء أمرها فقيرة فعاشت مدة مع براديه المثال ثم اعرض عنها وجفاها . فالتجأت الى نبيل روسي وعاشت معه دهراً ثم دخلت التمثيل وعرفت عن سبيله فيكتور هيجو

ولما تركته وحصلت منه على وعد بتخصيص جزء من الدرامة لها كانت قد وقعت في نفسه . فما هو ان برحته حتى قام يرد اليها الزيارة . وصارا بعد ذلك يتزاوران وانبسط كل منهما الى الآخر واقبل عليه . وكانت مدام هيجو ترى ذلك فلا تبدي تذمراً أو انتقاداً لما تعلم من ذيوع قصتها مع سانت بوف . وكان هيجو

نفسه يستغل هذه القصة لـكي يسوغ لنفسه خيانة الامانة الزوجية وعشق مدام درويه

وتمادى العشق بينهما حتى اهملت مدام درويه صناعتها في التمثيل وعندما نفي هيجو من فرنسا بامر نابوليون الثالث ذهبت معه الى جزيرة جرنزي وكانت مدام هيجو تزورها وتدعوها الى بيتها وتتجاهل امام الناس كل ما بينها وبين زوجها . ولا بد انها كانت تعاني آلاماً عظيمة من هذه الاحساسات المحتشدة في صدرها : حبها لزوجها وغيرتها من هذه المرأة وهوان نفسها امام ما ذاع عنها عن علاقتها بسانت بوف

ويحكى ان بعضهم زار دار الشاعر في مساء احد الايام في جرنزي . فلما دخل الى منظرته وجد زوجه مضطجعة وهي تعاني اشد الآلام فسألها : اين زوجها واولاده ؟ فقالت :

« ذهبوا كلهم الى دار مدام درويه لـكي يقضوا المساء هناك في انبساط وتمتع . اذهب انت ايضاً لأنك لن تجد هنا ما يسرك »

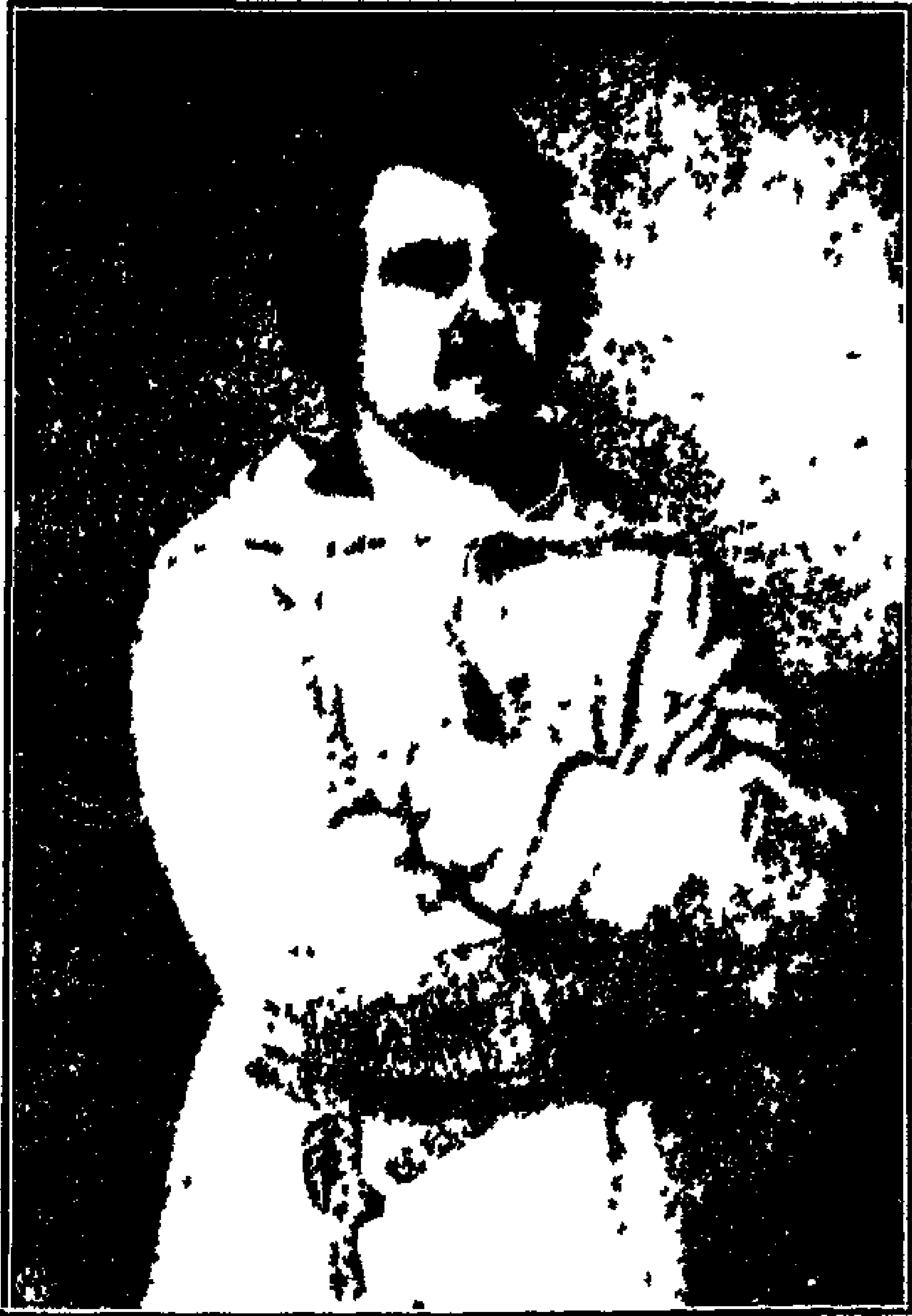
وهكذا عاشت مدام هيجو ٣٣ عاماً وهي تعرف ان المـكان الاول ليس لها في قلب زوجها . وكانت في خلالها مكسورة الخاطر مقهورة العواطف . فلو كان ما ذكره سانت بوف عن حبها حقيقياً فقد لاقت جزاء خيانتها . بل أكثر مما تستحق . وان كان ما ذكره كاذباً فهو جدير باللعنة في كل زمان وهي جديرة بالشفقة من كل انسان

أما مدام درويه فقد عاشت حتى بلغت الثمانين وماتت قبيل

فيكتور هيجو بمدة قصيرة ودفنت في باريس بعد أن حملت جنازتها في مشهد فخم لا يدري الانسان أية لطائف كان يتفاكه بها المشيعون لجنازتها وهم يسيرون وراء الشاعر وكلهم يعرف قصة عشقها

ولكن هذا هو المزاج اللاتيني يتغاضى عن مثل هذه الخطيئات بل يذكرها كأنها شيء مألوف لا غبار عليه

بلزاك وافيلينا هانسكا



بلزاك

ليس في القرن التاسع عشر من يفوق بلزاك في فرنسا في الفن القصصي وهذه الحقيقة لا يعترف بها الا القليل من الفرنسيين

ولـكن ادباء العالم الاوربى الدين يعرنون الادب الفرنسي الى غيره من الاداب يعرفون هده الحقيقه ويقرون لبلزاك بالتفوق والتبريز

ونظن ان هنالك مضماراً نستطيع ان نقابر به الفن القصصي فى الوقت الحاضر وهو القصص الروسيه . فما اقترب منهـا من القصص عند سائر الامم وما اشبهها في معالجه الموضوع او تخطيط الخلق وما تروح ترعها فى استكناه النفس والبعد عن البهرجه اللفظية كان احرى بان يكون فى الطراز الاول

وبلزاك من هـذه الوجهات وبخاصه من حيث درس نوازع النفس اقرب المؤلفين الى المزاج الروسي فهو لذلك افضلهم واقدمهم على مر الازمان . وربما يمتاز بلزاك ايضاً على كثير من ادباء روسيا بتنوع اسباب العيش التى تعيش بها اشخاص قصصه . فقد قال تين عنـه : « نجد في بلزاك سمساراً وعالماً اثرياً ومعمارياً ومجلداً وحياطاً وتاجر اهدام ووكيل تجاره وطالب صناعه وطبيباً ومحامياً »

وهنالك وجه آخر للشبه بين بلزاك والقصصيين الروس وهو نبالك الصوفيه الى كثيراً ما كانت تدفعه الى الاعتماد على غرائزه وبصيرة نفسه اكثر من الاعتماد على عقله

ولد بلزاك سنه ١٧٩٩ وعني ابواه بتربيته . وعندما بلغ الرابعه عشرة جيء به من المدرسه الى البيت وهو خائر القوى لا يدرى احد من الاطباء علته . وكان اكثر اوقاته منطرحاً على الفراش وفى مدة طويله وهو على هذه الحال ولعله من هذه العلة اكتسب ذلك الذوق الى ادمان القراءه وانصرف فى مراحه المبكره الى الكتابه

والتأليف . وكثيراً ما تـكون العلة وما تقتضيه من سكون الحركة وعدم النشاط داعية الى تقوية النزعة الادبية في بعض الاشخاص ممن تميل طبائعهم الى الادب

واخـذ في درس القانون ولـكنه لم يزاول المحاماة فقـد قام في ذهنه ان يحترف الادب وبقي اميناً لهذه الحرفة لا يبغي بها بديلا على ما عانى منها من الفاقة حتى اوتي في آخر ايامه النصر والشهرة

ومما يدل على بعض ما لقيه من الشدائد في بدء حياته الادبية هذه القطعة من خطاب ارسله الى اخته لورا يقول فيها : « اني شاب وبي جوع وليس على طبقي طعام . اه يا لورا ! لي رغبتان عظيمتان: ان أنال الشهرة وان أُحب . فهل احققها ؟ »

واخـذ بلزاك في مزاولة فنه يكاوح من الصنعة صعابها ويضع الترسيمات العظيمة للقوميدية الانسانية التي اخذ على عاتقه ان يصف فيها مختلف معاشات الناس واحوالهم وآمالهم واحزانهم واتراحهم . ومما يدل على ان هـذه الترسيمات كانت في ذهنه وقت محاولاته الاولى لـكي يكون اديباً معروفاً قوله في احـدى قصصه التي الفها ايام خموله :

« عليك ايها القارىء ان تتفهم اخلاق هؤلاء الاشخاص الذين اقدمهم لك وان تقفو حظوظهم في ثلاثين قصة ستأتيك بعد »

وحدث في سنة ١٨٢٩ ان جاء البريد الى بلزاك يحمل خطاباً من قلم سيدة ما جاء على آخره حتى شعر كأن نفسه قد غمرها نوع من الوحي . فقد كان الخطاب ينبض فهماً وعطفاً وكان فيه شيء من

النقد الذي يبعث اليه الاخلاص والحب اذ أومأت الكاتبة الى بعض عاداته التي الفها في أسلوبه وصار يكررها على غير وعي منه حتى باتت تمج من القراء

وأخذ بلزاك يتلو الخطاب ويعيد تلاوته وهو في سرور يشبه اللذة ويسائل نفسه عن هذه الكاتبة التي تفيض حباً وعطفاً وحكمة ثم تواترت عليه الخطابات من هذه الكاتبة وعرف منها أن كاتبتها سيدة بولندية تدعى افيلينا هانسكا وكانت متزوجة من أحد الأشراف البولنديين وكان متمرضاً بزمانة لا يبرأ منها . وكان كلاهما في نيو شاتل في سويسرا

ولم تمض مدة طويلة على تبادل المكاتبات بينهما حتى سافر اليها بلزاك والتقى بها في نيوشاتل ويقال انهما عند أول لقائها به اغمي عليها من فرط التأثر . ولم تكن هذه السيدة البولندية جميلة ولكن كان على وجهها مسحة جذابة من روحانية نفسها جعلت بلزاك يعلق بها

وعند ما فارقها وعاد الى باريس لم يكن يمضي عليه يوم واحد حتى يكتب لها ويخبرها عن اتفه الأشياء وأقلها خطراً . وكان طول هذا الوقت تتوالى خسارته في مؤلفاته بحيث باتت ديونه أربعة آلاف جنيه وهو في الاربعين من عمره . وكانت أكبر خسارته ناشئة عن شدة عنايته بتحرير مؤلفاته حتى كان يتفق أحياناً مع أحد الناشرين على مقدار من المال لطبع كتابه فاذا جاءته التجارب الاولى للطبع اعمل فيها قلمه تحريراً وتغييراً حتى تزيد كلفة الطبع عن مبلغ

الاتفاق الذي بينه وبين الناشر. فكان يخرج من كتابه بعد تأليفه بخسارة غير قليلة . ومثل هذه الشدائد كانت جديرة بأن ينكسر أمامها قلب أي مؤلف آخر فيتثبط بها عن المضي في اتمام عمله ولكن بلزاك في ذلك الوقت كانت نفسه تتأجج بنار الحب التي أشعلتها في نفسه افيلينا هانسكا . فقد كان يقضي في عمله نحو ١٨ ساعة فاذا أعيا وانطرح على فراشه يبغي النوم تذكر افيلينا فيهب نشيطاً مسرعاً ويكتب لها خطاباً يشع بالحب والرجاء

ومما يؤثر عن بلزاك قوله لها : « ليس يرضي الرجل في أول حبه سوى المرأة في آخر حبها » وقوله : « الحب عندي هو الحياة . وما شعرت بالحياة قط كما أشعر بها الآن »

وفي سنة ١٨٤٢ مات زوج افيلينا . وكان بلزاك ينتظر أن يتزوج حبيبته ولكن ما أشد دهشه اذ لم تقبل حبيبته الزواج به على شدة حبها له وتعلقها به . وكانت تتعلل بالعلل للرفض أو الارجاء فساعة تحتج بأولادها واخرى تحتج بأملاكها في بولندا وما الى ذلك . . .

وحقيقة الحال أن بلزاك كان يحبها ويشتهيها . أما هي فكان حبها اعجاباً وعطفاً في الأصل ليس غير . فلما عرض عليها الزواج لم تجد في نفسها تلك الدوافع التي تبعث في المحبين الرغبة في العيشة معاً ودوام قرب أحدهما من الآخر

وأخيراً تزوج الاثنان في سنة ١٨٥٠ وكان من حسن حظ بلزاك أو حظهما معاً أن هذا الزواج لم يدم أكثر من خمسة أشهر

عات في نهايتها بلزاك بضعف القلب . لأنها لو عاشا أكثر من ذلك لما أطاقا العشرة . فان افيلينا هانسكا أنما احبت من بلزاك روحه وعبقرينه وهذا الخيال الذي تكوّن في رأسها من ادمان قراءة كتبه

وقد وصف بلزاك علاقته معها في قصة صغيرة له تدعى « سيرافيتا » ليست من أجود قصصه ولكنها تظهر القارىء على سر من أسرار النفس في الحب والقلق

قصة كارل ماركس



كارل ماركس

يعدّ كتاب « رأس المال » الذي وضعه كارل ماركس انجيل

الاشتراكيين الآن يقرأونه ويلقون عليه الشروح المختلفة ويلمونه للنشء ويستشهدون بأقواله عندما تعوزهم الحجة . وقد ترجم الى جميع اللغات الحية فحيثما تجد وسطاً متمدنياً وحالة اجتماعية راقية بعض الرقي تجد نزاعاً بين المموِّلين والعمال وتجد هؤلاء ينظرون الى ماركس كأنه نبيهم الذي يبشرهم بملكوتهم القادم ويحمسهم على الجهاد في سبيل تحقيقه بمقاومة المموِّلين

قال سبارجو المترجم بحياة ماركس : « سواء ظهر بعد تعاقب القرون ان الاشتراكية شر أو خير فان كارل ماركس سيكون على الدوام موضع اهتمام باعتباره أحد أعيان التاريخ ذوي الذكرى الخالدة . وسيجد المفكرون من الرجال والنساء أن درس حياته وعمله لا يقل أهميـة عن درس حياة داروين أو كروميل أو وزلي وعمل كل منهم على اختلاف اعمالهم »

وقلّ أن يدخل الانسان مكتبة عمومية في اوربا الا ويجد مئات الكتب عن الاشتراكية ليس منها كتاب واحد لا يذكر ماركس ويشرح نظريته . ولكن على الرغم من كثرة عدد الذين يدرسون كتاب رأس المال فان عدد العارفين بحياة ماركس قليلون . وعلة ذلك أن ماركس قد أذاع بين الناس مذهباً شغلهم به عن نفسه أو أن ضوء هذا المذهب قد كسف شخصية ماركس حتى تضاءلت وصار لا يعنى بمعرفة حياته أحد وإنما العناية كلها موجهة الى درس نظرياته

ومع هذا الخمول الذي كان من نصيبه في ذكر شخصيته كانت

حياته في الواقع كثيرة الحوادث والاخطار . فقد عاش أكثر أيامه وهو مطارد لا يهبط قطراً حتى يلفظه الى قطر آخر ومضت أيامه وهو يكاوح الفقر حتى لقد ولدت امرأته مرة فلم يجد لابنه مهداً ولم يكن يزيد دخله في اكثر ايامه عن خمسة جنيهات في الشهر

وُلد سنة ١٨١٨ وكان ابوه يهودياً قد احترف المحاماة وكان قد تنصر سياسة لا ديناً وذلك لكي يقبل على مكتبه الناس . وكان اهله يعيشون في بلدة تريف في الموزيل في فرنسا قريباً من التخوم الالمانية . وهذه البلدة كثيراً ما تناوبتها سيادة فرنسا والمانيا على التوالي

وكانت أمه مؤمنة دينة تميل الى الهدوء والجري على أوضاع العرف فعاشت طول حياتها وهي في اشد الحزن والاسى لنزوع ابنها الى افكاره الثورية ومطاردة الحكومات له . ونشأ ماركس عبلاً مديد القامة وكان اسمر يكاد يكون آدم حتى كان اخوانه يسمونه الزنجي ولكن ملامحه كانت أبعد ما تكون عن الملامح اليهودية المألوفة . فكانت طلعته شريفة مهيبة وعيناه تنطقان بخلوص النية وصراحة الضمير

وكانت مدينة تريف بعد سقوط نابوليون قد انتقلت ادارتها من فرنسا الى المانيا . وكان يسكن بجوار منزل ماركس المستشار الالماني وهو البارون وستفالين . وكان والد ماركس قد عرف هذا البارون وصارا صديقين يتزاوران وتعرفت عائلة كل منهما الى عائلة الآخر . وكان للبارون ابنة جميلة تدعى برتا وكانت منها

أكبر من سن كارل ماركس باربع سنوات.ولكنه شب معها وقضيا عصر الصبا معاً فلما بلغا سن الشباب تعلق ماركس بها وصار يلهج بذكرها ولا يطيق فراقها . وكانت هي اعقل منه بحكم سنها وكانت تجد في نفسها له مثل ما يجد هو أو أكثر ولكنها كانت تداري وتطاول

وأرسله أبوه الى جامعة بون ولكنه لم يكن خلياً . فاشتغل باله بحبيبته وانتشرت عليه لذلك دروسه فلم يأت بنتيجة وصارت أخباره تصل الى والده فيبعث اليه يبكته ويؤنبه بلا طائل .وأخيراً استدعاه والده ومنعه من الذهاب الى بون

فلما حضر أخذ في حض حبيبته على الزواج منه وألح عليها في ذلك وأظهر لها من الحب والاخلاص ما جعلها تقبل يده وتعده بالزواج بعد تردد طويل وممانعة جدية . فقد كانت برتا لزيادة سنها على سنه تخشى ان يكون تعلقه بها عن هوى زائل لا عن حب مقيم

وبقيت خطبتهما سراً مكتوماً لا يدري بها أبواهما . وعاد ماركس فذهب الى جامعة برلين وأخذ يدرس بنشاط ولكنه كان كثير الدأب في تحصيل ما لم يكن قد اختص له من الدروس فكان يكثر من مطالعة التاريخ والفلسفة والاقتصاد مهملاً في ذلك دروسه الاصلية . وهذه القطعة التالية المأخوذة من أحد خطابات والده اليه تبين حالته في ذلك الوقت :

« أنك في تشوش هائل تكثر من التجوال في مختلف العلوم وتقضي وقتك عبثاً في التأمل حول المصباح »

ولكنه مع هذا التشوش استطاع أن ينال شهادة الجامعه وكانه

أبوه قد مات في هذه الفترة . فعزم على ان يحترف التعليم ولكنه عدل عنه الى الصحافة وتعين محرراً في احدى الجرائد الحرة . ثم غلا في سياسته حتى اضطر أصحاب الجريدة الى فصله

وكان أهل برتا قد عرفوا علاقتها بماركس وصاروا يمانعون في عقد هذا الزواج . ولكن حب الحبيبين كان اوثق من أن تفككه شكوك العائلة .وتزوجا على الرغم من استياء أهل الفتاة في سنة ١٨٤٣

وخرج بها ماركس مهاجراً الى باريز حيث تعرف الى برودون وباكونين وسان سيمون وكان هؤلاء الثلاثة من اقطاب الاقتصاد فى ذلك الوقت ومن غلاة الحاملين على مبدأ الملكية فاشرب ماركس آراءهم وأخذت هده الآراء تتطور في نفسه وتتكشف حتى تفتحت ازهارها عن الاشتراكية الحديثة

وعرف ماركس في ذلك الوقت أيضاً هينه الاديب الالماني الذي لا يفوقه في الادب الالماني سوى جيته . وكان هينه يفنن كل من يقترب منه أو يقرأ اقواله بل كان يده بحاصر أحيانا بمن أحبينه من النساء والرجال

وتعلقت زوجة ماركس بهينه بعض التعلق وكان الآخر يحبها. ولكن أكثر الرواة على ان هينه احترم في ماركس صداقته ولم يخنه وان الزوجة عاشت أمينة للزوجية لم تخل بشروطها ولم يكن حبها لهينه الا حباً افلاطونياً بريئاً

وأوعز ملك بروسيا الى حكومة فرنسا أن تنفي ماركس من بلادها فنفته . وبقي من ذلك الوقت الى حين وفاته وهو في فقر

مدقع دائم الرحلة من بلد الى بلد لا ينزل مكاناً حتى يرى الشرطة قد احتاطته وأخذت في اعناته بضروب من المكايدات . وانتهى به المطاف الى لندن حيث طبع كتابه « رأس المال » بعد ان عانى المشاق في وجود من رضي بطبعه

ولم يكن يعوله سوى جريدة التريبون التي في نيويورك اذ كانت ترسل اليه جنيهاً كل اسبوع لكي يوافيها ببعض المقالات

وانتهت هذه الحياة المعذبة بشيخوخة غير مطمئنة . فقد فقد ماركس ايمانه بالله وكفر بقوانين الزواج وصارت الحكومات في نظره شراً عظيما يجب أن يزال من الوجود . وماتت زوجته قبل وفاته بعام ويحكى انه عند ما ذهب هو واولاده الستة لكي يدفنوها عثر فوقع في حفرة قبرها ومنذ ذلك الوقت الى يوم وفاته انطفأت حماسته ولم يعد يهتم لشيء في هذا العالم

ومات ماركس بعد ان زرع بذور الاشتراكية والآن نسمع عن هذا المذهب ولا يذكر منا أحد زعيمه الكبير والحقيقة أن الاشتراكية قد غمرت زعيمها حتى اخملته

لاساله وصاحبته

كان القرن التاسع عشر بدء نهضة الاشتراكية وقيام العمال الذي نرى أثره الآن في ظهور الاحزاب الاشتراكية على مسرح السياسة وتقلدها زمام الحكومات وهذا الانقلاب الهائل في روسيا

وقد كان أكبر زعماء الاشتراكية في ذلك القرن يهوديان احدهما كارل ماركس والآخر فرديناند لاساله

وكان لاساله من يهود المانيا نبت في عائلة غنية وتربى أحسن تربية يحصل عليها شباب تلك الايام في جامعات المانيا . وقد أراده أبواه على أن يسلك سبيل والده في تجارة الحرير فأبى واختط لنفسه خطة خاصة آثر فيها المجد على الثروة ووجاهة الاسم على وجاهة المادة . فاخذ على نفسه أن يعين العمال في نهضتهم نحو تحقيق الاشتراكية وأخذ يدعو اليها بماله وقلمه يخطب ويكتب في كل مكان وينشر النشرات ويؤلف الرسائل في تحبيذها والدعوة اليها حتى صار محور الحركة الاشتراكية في المانيا ينضوي الى لوائه آلاف العمال في جميع انحاء المانيا

وكان لاساله مثقفاً كثير الاطلاع والفحص عن الآداب والعلوم فكان لذلك كثير الاختلاط بالعلماء والادباء يجلونه ويكبرون فيه اجتهاده وامانته لحركة العمال . وقد شهد فيه هينه الاديب الالماني المتفرنس هذه الشهادة التالية التي كتبها لكي يقدمه بها الى انسه المؤرخ . وناهيك بشهادة يكتبها هينه . قال :

« صديقي هر لاساله الذي يحمل اليك هذه الرسالة هو رجل ذو مواهب ذهنية عظيمة . فهو يمزج قوة الارادة الى كفاية العمل ويضمها الى ابعد مدى من الثقافة وأكبر مقدار من العلم . وهذا كله الى ميزة الفهم والافهام بما لم أرَ لها شبيهاً . ولست اعرف احداً قد اجتمع فيه مثل هذا المقدار من الحماسة الى هذا المقدار من الذكاء »

وقد كان هينه من كبار القرن التاسع عشر وحسب القارىء دليلا على مزاج لاساله الادبي وأنه من الطراز الاول اعجابه بهينه في هذه الفقرات التالية :

« اني احب هينه فهو شخصي الثاني . ما ابلغ جراءته وما اعظم فصاحته ! فهو يعرف كيف يهمس همس الصبا عند تقبيلها الورد في كلماته وكيف يتنفس اللهب عند ما يجيش ويحصد ما حوله . وهو يستثير ارق العواطف وألطفها كما أنه يستنهض منها أكثرها شراسة وابعدها جسارة . فهو يملك ناصية القيثارة يعزف على جميع اوتارها »

وبلغ لاساله من الشهرة والقوة ان صار بسمارك يدعوه ويفاوضه في الحض على حركة الاتحاد بين الامارات الالمانيـة يستغل بذلك نفوذه لترويج الدعوة الى الامبراطورية الالمانية

وفي حياة لاساله امرأتان قد كان لهما اكبر أثر في تاريخه . اولاهما تدعى الكونتس هاتزفلد . ولم يكن لاساله يعشقها فقـد كانت تبلغ من العمر ضعفي عمره . وكانت تخاطبه في رسائلها اليه بقولها : « يا ولدي العزيز » وكان هو الآخر عند ما يكتب اليها

يذكر لها اسماء من التقى بهن من النساء وما قاله لهن ويصف جمالهن لها . وليس هذا شأن من يحب

وقد نشرت بعض الكتب لبث الاعتقاد بأنه كان يحبها ولكن فحص خطابات كل منهما للآخر يثبت أنه كان هناك ود بينهما لم يصل قط الى درجة العشق ولا فكر احدهما في ذلك

وخلاصة علاقته بهذه المرأة أنه عرفها في سنة ١٨٤٦ وكان عمره اذ ذاك ٢١ وهي تناهز الاربعين . وامتدت صلة الصداقة بينهما حتى صارت تبثه شكايتها من زوجها . وكان زوجها قد عرف خليلة ملكت لبه واستأثرت باموااله حتى خشيت الزوجة أن يوصي باموااله لها دون اولاده . وعرفت أنه قد أوصى بالفعل بجزء كبير من امواله لها وأن وثيقة الوصية موجودة عند هذه الخليلة . فأعمل لاساله فكرته لكي يحصل على هذه الوثيقة . وعرف أن الكونت وخليلته ذاهبان الى أكس لاشابل . فاندس وراءهما يصحبه صديقان حتى نزلوا في الفندق الذي نزل فيه الخليلان . وسرقوا هذه الوثيقة . ولكن لسوء الحظ تنبهت المرأة للسرقة وصاحت بخدم الفندق فقبضوا عليهم وساقوهم الى مركز البوليس حيث أخذ التحقيق مجراه وانتهى بالحكم على الصديقين دون لاساله لانه لم يثبت عليه شيء . وعاد لاساله الى الطرق السلمية لمكافحة هذا الزوج . وبقي في مكافحته نحو تسع سنوات ربح فيها القضية لابناء الكونتس وألغيت الوثيقة . ولكن ذلك بعد أن اضاع مقداراً كبيراً من ماله الخاص

أما المرأة الثانية فتدعى هيلين فون دونتجس . وكانت فتاة قد نالت حظاً كبيراً من التربية ونشأت نشأة حرة طليقة . وكانت وهي فتاة قد ساحت في سويسرا وايطاليا فاكسبتها الغربة من التجارب ما جرأها على الحديث والاختلاط . وكانت مخطوبة الى رجل ايطالي في سن الاربعين قبلته مكرهة بضغط من ابويها . ثم انخلعت منه وعرفت شاباً شريفاً من اهل الفلاح قالت اليه حتى خيل الى من حولها انهما لا بد متزوجان قريباً

ولم تكن الى ذلك الوقت قد عرفت لاساله . وانما كانت تسمع به . ففي احدى الليالي وهي جالسة وقد تفتحت للحديث وصارت تجهر بآراء قد جرى العرف على أن تكتمها من في سنها قال لها بارون من الحضور :

« هل تعرفين فرديناند لاساله ؟ »

فقالت : « كلا »

فقال : « كيف ذلك ؟ أحقاً انك لم تريه ؟ هذا عجيب فقد خلق كل منكما للآخر »

فاستحيت من أن تستزيده عن غرضه . ولكن لم تمض برهة حتى قال آخر :

« يبدو من حديثك أن أفكارك وآراءك قريبة جداً من افكار فرديناند لاسالة وآرائه »

فتطلعت نفسها من ذلك الوقت الى رؤية لاساله وصارت تسأل عن اخباره وتهجس بذكره قبل أن تراه. وفي احدى الليالي غشيت

«صالون» احدى العائلات ورأت شاباً مديد القامة اشقر ذهبي الشعر جعده . فرأت نفسها تسير نحوه كأن به قوة قد جذبتها اليه . وكان هذا لاساله . وأخذا في الحديث وشعر كل منهما انه يرى في شخص الآخر صديقاً قديماً . وبلغ من الفة الواحد بالآخر انهما عندما خرجا صار لاساله يتحبب اليها ويدللها ويسميها باسماء الغرام

ومضت تسعة اشهر بعد ذلك لا يلتقيان . ثم التقيا في «صالون» آخر وبث كل منهما الى الآخر لواعجه . ومما قاله لاساله لها في تلك الليلة وكان الخطر محدقاً به والحكومة تنوي القبض عليه لمحاكمته لاثارته الهياج بين العمال :

« هبيني حكم عليّ بالاعدام . فما انت فاعلة ؟ »

فاجابته على الفور : « انتظر حتى يقطع رأسك حتى تمتع برؤية حبيبتك الى آخر لحظة من حياتك . ثم بعد ذلك اتناول السم »

ومضيا في الحب حتى اشتهر عنهما وصار جميع من يعرفونهما يرقبون زواجهما ولكن والدي الفتاة كانا يعارضان في هذا الزواج أشد معارضة ويعتبرانه مهيناً للعائلة حاطاً بكرامتها . فلاساله لم يكن اشتراكياً فحسب بل كان ايضاً يهودياً . وكانتا الصفتين كانت من القبائح في نظر العائلة

ولكن الفتاة لم تكن لتخضع لوالديها الخضوع الاعمى الذي كانت تفرضه عليها التقاليد المأثورة . ففرت اليه واحتملت معها حقائبها وطلبت اليه ان يسافرا معاً الى باريس حتى يتزوجا

ولكن لاساله لم يكن يحب ان يتزوج منها خفية في بلاد الغربة

ذ كان يرى من واجبه نحو حبيبته أن يتمم الزواج علناً باحتفال وابهة جديرين بعروسه الجميلة . وكان واثقاً ان معارضة ابويها سوف يتغلب عليها ويميلها الى رأيه

ولكنه اخطأ في حسبانه . فان والديها كانا قد عقدا نيتهما على ان يزوجاها من ذلك الشريف الفلاخي راكوفتز فلما رجعت هيلين اليهما اخذا في تقريعها وحبساها في غرفة لا ترى احداً سواهما

وطالت مدة حبسها واهلها وذوو قرابتها يترددون عليها ويترضونها بكل الاساليب . وكانت في نفسها نبوة من لاساله احدثها عدم موافقته على السفر والزواج . واخيراً بعد طول الجدال رضيت ان تكتب الى لاساله خطاباً تقطع فيه ما بينهما من صلة الحب السابق وتنبئه بعزمها على الزواج وعقدت خطبتها على راكوفتز

وبلغ ذلك لاسالة فاستشاط غضباً . وارسل في الحال الى راكوفتز يطلب مبارزته . ولم يكن راكوفتز يحسن شيئاً في العالم قدر المبارزة فسارع الى تلبية الطلب

والتقى الاثنان في جنيف في سويسرا وأخذ كل منهما شاهديه وخرجا بعيداً حيث جرى البراز وانتهى بأن جرح لاساله جرحاً بالغاً كان شديد الألم لم ينقطع تأوه لاساله منه الا عند وفاته بعد ثلاثة أيام من المبارزة

وتزوجت هيلين من هذا الفلاخي ولم يدم زواجهما سنة اذ مات بالسل بعد نحو خمسة اشهر . وتزوجت بعد ذلك من رجل آخر .

ثم احترفت التمثيل . وقد وضعت كتاباً عن ذكرياتها عن لاساله. ادرّ عليها ربحاً كبيراً وصفت فيه زعيم الاشتراكية الألماني وضمنته أهم خطاباته اليها . وقد الف الكاتب الانجليزي جورج ميريديث قصة عن حب لاساله وهيلين هي من ابدع قصصه

جامبتا وصاحبته

مضى على الجمهورية الفرنسية أكثر من نصف قرن . وقد ماتت النزعة الملوكية في فرنسا أو كادت . وليس يعزي انتشار الفكرة الجمهورية وخمول المذهب الملوكي الا الى جامبتا

كان ليون جامبتا من اهل جنوب فرنسا ولم يكن خالص الدم الفرنسي اذ كان ابوه ايطالياً . وكانت صفات أهل الجنوب متجسمة فيه . ومن الناس من يقول أنه كان بدمه عرق شرقي . وعلى كل حال فانه من حيث الخلق كان متدفق العواطف ثائرها يميل الى البلاغة الخطابية شأن الفرنسيين والشرقيين . والفرنسي أقرب الناس طبعاً وخلقاً الى الشرقيين

ونال جامبتا شهادة المحاماة وهو في الحادية والعشرين وسار تواً الى باريس حيث أخذ في مقاومة نابوليون الثالث فكان يخطب في بيان الاضرار الناشئة عن نظام الامبراطورية وعرقلته للحرية ولرقي البلاد ووجوب استبداد الجمهورية بهذا النظام

وكان جامبتا في هيئته يخالف الفرنسيين بعض المخالفة فقد كان لون بشرته زيتونياً وكان جافي الطبع مغرماً بالتوم والزيت اذا خطب تحركت جميع جوارحه كأنه كان يترنح ببلاغتـه وكان لعابه يتطاير من فيه فكان اعداؤه لهـذا السبب يلقبونه بلقب : « المجنون الغضبان »

ولـكن هذه الصفات نفسها كانت تحببه الى الجمهور المؤلف

من العمال والصناع فكان يلتف حوله ويزيد سخطه على النظام الامبراطوري يعزو اليه كل نقيصة في الحالة الاجتماعية او الاقتصادية

وفي سنة ١٨٦٩ انتخب جامبتا عضواً في المجلس الاشتراعي واخذ ايضاً في متابعة حملاته على الامبراطورية حتى صار له حزب في المجلس يناوىء الحكومة ويفتش عن عيوبها ويشهر بها . وكانت قاعة المجلس مبنية بهيئة دور التمثيل فهي من جانب نصف دائرة يجلس فيها النواب ويجلس فوقهم الجمهور والصحفيون فاذا وقف الخطيب لم يوجه كلامه الى رئيس المجلس كما هو الشأن في انجلترا او اميركا وانما يواجه النواب والجمهور . ومثل هذا الموقف يستثير الروح الخطابية ويبعث في الخطيب الفصاحة والذلاقة . بخلاف ما يجري في انجلترا مثلا حيث الخطيب يواجه الرئيس الذي يطالبه بالموضوع ويمنعه من الاستطرادات اياً كانت

وحدث ان جامبتا وهو يخطب جالت عينه بين الجمهور فرأى فتاة هيفاء تكاد تكون نحيفة قد كست يديها بقفازين أسودين وكان سائر ملابسها قاتما فتاً كدت من ذلك نصاعة لون بشرتها وكانت هـذه الفتاة تحدق فيه نظرها فاذا حملته موجة الحماسة وهو يخطب رأى الفتاة تتحمس لحماسته يرتفع صدرها ويهبط وتختلج اعضاؤها وتحمار وجنتاها كأنها هي التي تخطب

واطرد الحال على هـذا المنوال جملة اشهر حتى لم يشك جامبتا في انها تحبه كما يحبها . وحدث في سنة ١٨٧٠ ان وقف جامبتا خطيباً في المجلس واخذت فصاحته تتدفق عن فضائل النظام الجمهوري واخذ

يصرح بهذه الفضائل ويجهر بصوته عالياً بما لم يسبق ان فعل مثله قبلا . وكان وزراء الامبراطور يسمعون له وهم خانسون وقد تقنفذ كل منهم في مكانه وسائر الاعضاء صامتون قد ذعر بعضهم بهذه الصراحة حتى وجم وسحر البعض الآخر بحسن بيانه وبلاغته حتى بقي مبهوتاً يحدق النظر في الخطيب وكله اذان مستمعة

وما انتهى جامبتا من خطبته حتى التقى النظران فرأى وجه هذه الحبيبة ينطق بالاعجاب والعطف

وقد قلنا ان جامبتا كان جافي الطبع لم يعاشر من الناس الا طبقات العمال والصناع ولذلك لم يكن يعرف ذلك العرف الذي يجري بين الطبقات العليا وتلك العادات المألوفة بينهم في احترام الاحساس ومراعاة الذوق والتلطف في الاشارة والكياسة في السلوك. ولذلك عندما انتهى جامبتا من خطبته اخرج ورقة من محفظته وكتب سطراً او سطرين ثم هتف باحد الخدم واعطاه هذه الورقة وطلب اليه ان ينفذها الى هذه السيدة . وكل هذا حدث علناً امام الاعضاء والجمهور

ولكن الفتاة كانت ارق حاشية واوفر ادباً من جامبتا . فانها اخذت الورقة والعيون ترقبها فلم تفتحها بل مزقتها والقتها على الارض وهي صامتة هادئة كأن لم يحدث لها شيء. وتنبه بعد ذلك جامبتا وعرف انه يعامل امرأة لها كرامة النساء الشريفات

ثم حدثت حرب السبعين بين المانيا وفرنسا وحوصرت باريس وكان جامبتا بها يهيء وسائل الدفاع وبقي على ذلك مدة ثم رأى ان

يجهز جيشاً لاستخلاص باريس ورد الالمان عن فرنسا . فركب بالوناً طار به من باريس في جنح الظلام وهبط في جنوب فرنسا حيث اخذ يؤلف الجيوش ويحارب الالمان وكانت الهزائم من نصيبه في اكثر ما وقع بينه وبين جيش العدو ولكنه كان مع ذلك دؤوبا على حشد الجيوش ومناوأة الالمان وكان يقول في ذلك : « يجب ان لا نرضى بالصلح ما دام في فرنسا مائتا الف جندي قد عبئوا للقتال وما دام عندنا الف مدفع نسددها نحو العدو »

ولكن فرنسا كانت قد ملت القتال وفترت عن مجاهدة عدوها ورضيت بالصلح الذي عقد في فرساي

واجتمعت « الجمعية العمومية » في فرساي وصار جامبتا عضواً فيها . وبينما هو في احدى خطبه لاحت منه نظرة الى مكان الزائرين فرأى الفتاة . فتحول الى احدى غرف المجلس وكتب لها هذه الرقعة :

« ثم ها انا ذا اراكِ مرة اخرى . فهل حقيقة انك انت هي؟»

وذهب الخادم وناولها الرقعة في لطف وخفية . فاخذتها ودستها بين صدرها وملابسها ولم تجب

وكان جامبتا قانعاً بهذه المعاملة راضياً منها بهذا المقدار من العطف بعد ان ارتكب غلطته الوقحة منذ سنوات . فاستبشر خيراً وامتلأ قلبه آمالا . ولكنه سقط في يده عندما رآها قد انقطعت عن زيارة الجمعية

ولكنه مع ذلك بقي يشعر في نفسه بأنه لا بد ملاقيها في المستقبل

وانها قد كتبت له في لوح القدر . وكانت نفسه صادقة البصيرة في ذلك

فقد حدث ان احد اصدقائه اصيب بجرح ولزم فراشه فذهب يعوده وبينما هو في منظرة البيت واذا به يرى الفتاة التي كانت موضوع خياله وحديث هواجسه ماثلة امامه

فتقدم منها وجعل يحادثها بتحفظ وهي تجيب باخصر الألفاظ . ثم استأذنت وخرجت . وخرج جامبنا في اثرها حتى ادركها في الشارع ثم قال لها بلهجة التوسل والتضرع : « لمَ مزقتِ خطابي وكيف وانت تعرفين حبي لك طول هذه السنين تلزمين الصمت ولا تجيبينني ؟ »

فترددت الفتاة وتلعثمت وشرقت عيناها بالدموع ثم قالت : « لا يمكنك أن تحبني لأني غير جديرة بك . فلا تلح عليّ ولا تعدني شيئاً . فليودع كل منا الآخر . ويجب على الاقل أن افضي اليك بقصتي لأني من اولئك النسوة اللاتي لا يتزوجهن احد »

ثم اخذت تشرح له قصتها وخلاصتها ان اباها كان ضابطا في الجيش توفي فجأة ولم يترك لها شيئاً تعيش منه فاشتغلت مربية في بيت احد قدة الجيش مدة الامبراطورية فاغري بجمالها وفسق بها وهي بعد في غرارة الشباب لاتحسب للمستقبل ولا تدرك قيمة عذرية الفتيات . فلما تفكرت وتدبرت في امرها اتضح لها مبلغ جرمها فاخذت تشتغل في اعمال وضيعة وقد اعتزمت على ان تقضي حياتها في هذه الاعمال لا تفكر بزواج او رفاهية تكفر بذلك عن هذا

الذنب القديم حتى تنتهي حياتها

ولكن جامبتا كان قد تعلق قلبه بها . فلم تؤثر فيه هذه الاقوال وطلب اليها أن تتزوج منه . فلما ألح عليها في ذلك قالت له : « ان زواجنا يؤثر في شهرتك فان شرفي قد ضاع وحياتي قد ذهبت فليس لي مستقبل وخير لكل منا أن يفارق صاحبه »

ولكن الحب لج بينهما واشتد تعلقهما الواحد بالآخر وكانا يلتقيان على مواعيد وفي أمكنة بعيدة عن الأعين . وأخيراً رضيت ليوني (وهو اسم حبيبته) بان تعقد معه خطبة كاثوليكية تكون بمقام الزواج . فيعيشان بعيدين منفصلين ولكن تكون الخطبة بمثابة الزواج ينال منها المحبان جميع ما يناله المتزوجان

وكانت ليوني شديدة الايمان بالدين وكانت تعتقد أنه لا يغسلها من خطيئتها الماضية سوى عقد كنسي يعقد بينها وبين حبيبها محوطاً بجميع ما في الدين والكنيسة من الروعة والهيبة والوقار

وكان جامبتا في ذلك الوقت يعارض الكنيسة ويدعو الى فصلها عن الحكومة . فطلب أن تتزوج منه اولا زواجاً مدنياً ولكنها رفضت هذا بتاتاً . ولكي لا يقوم عليه خصومه ويعيرونه بزواج كاثوليكي من جهة ولكي يرضي ضمير حبيبته اتفق كلاهما على هذه الخطبة الكاثوليكية

وعند الكاثوليك نوعان من الخطبة احداهما عادية لا تجيز بين الخطيبين أية علاقة زوجية والاخرى تجيز هذه العلاقة . وقبل جامبتا أن تعقد هذه الخطبة الاخيرة بينهما . وذلك بعد أن حصل

من حبيبته على وعد بأن تتزوج منه زواجاً رسمياً عندما يترك الحياة السياسية

وتمت الخطبة واستأجرت ليوني بيتاً منعكفاً وصارت تلتقي بحبيبها في الاماكن التي يقل غشيان الناس لها دون أن يزورها جامبتا في منزلها . وبقيت على ذلك مدة طويلة لا يدري أحد من خصوم جامبتا بعلاقتها به

وعاشت على ذلك طول مدة اشتغاله بالسياسة مضحية بهناء الزواج وشرف علنيته مؤثرة أن تكون علاقتها سرية حتى لا ينال جامبتا شيء من عار تاريخها الماضي

وكان جامبتا يسرف في انفاق قوته على الحب والسياسة وقد قال فيه مرة عدوه اللدود بسمارك :

« انه هو الوحيد الذي يفكر في الانتقام من المانيا وهو أكبر من يهدد المانيا من الساسة الفرنسيين . ولكنه لحسن الحظ لن يعيش كثيراً . ولست القي هذا القول جزافاً فاني اعرف من التقارير السرية التي ترسل اليّ معيشة هذا الرجل كما اعرف عاداته . فهو يجهد نفسه أكثر مما يتحمل لا يستريح في الليل أو في النهار . وجميع من عاش هذه العيشة من الساسة ماتوا صغاراً . ويجب على رجل السياسة لكي يخدم أمته حق الخدمة ان يتزوج امرأة دميمة وأن يكون له اولاد كسائر الناس وأن يكون له مسكن ريفي يستطيع أن يعيش فيه كما يعيش الفلاحون ويذهب اليه من وقت لآخر للراحة »

وكان نظر بسمارك صادقاً في جامبتا . فقد حدث أنه هزم في

البرلمان في سنة ١٨٨٢ فاعتزل السياسة وعزم على أن يقترن بليوني ويعيش معها سائر حياته مغتبطاً بالحياة المنزلية التي لم يتمتع بها للآن . ورضيت ليوني بالزواج الآن وصارت تنتظر اليوم الذي يعقد فيه لكي يعيشا معاً بلا حياء امام الجمهور

وبحث جامبتا عن منزل في الريف لكي يكون مسكنهما ولم يكن يملك من المال بعد طول هذا الجهاد السياسي وعظيم ما أبلاه في سبيل وطنه سوى نحو خمسمئة جنيه وذلك على الرغم من الملايين التي مرت في يديه وكان ينفقها بلا حساب على الجيوش والاساطيل وغيرها . فاشترى بهذا المبلغ منزلاً كان يسكنه القصصي الشهير بلزاك وأخبر حبيبته بذلك واستعد كلاهما للانتقال اليه

وهما في ذلك واذا باشاعة غريبة قد انتشرت في باريس مؤداها أن جامبتا قد قتل . فبعض يقول ان أحد الفوضويين قد حاول قتله وجرحه وآخرون يقولون بل هو انتحر

واتضحت الحقيقة بعد قليل فان جامبتا وهو يتهيأ للانتقال الى منزله الجديد بالريف كان ينظف مسدساً فغفل عن رصاصة كانت موجودة به . فبينما هو يقلبه ويشد زنده واذا بالرصاصة قد انطلقت وحرقت كفه . ولم يكن الجرح مميتاً ولكن بسمارك كان صادق النظر . فان جامبتا كان قد ضعف من الافراط في تحميل جسمه ما لا يحتمل حتى صار مثل هذا الجرح الذي يبرأ منه غيره في أيام خطراً كبيراً . فانه تقيح وأحدث حمى شديدة مات منها جامبتا

وعلمت ليوني بما جرى لحبيبها فخرجت من بيتها لا تلوي على

شيء تهيم في الغابات وكأنها قد فقدت رشدها . ثم وجدت ديراً فدخلت فيه ولكن نفسها المضطربة بقيت ثائرة حانقة على هذا القدر الذي حرمها من حبيبها في الساعة الاخيرة التي كانت تنتظرها وخرجت من الدير وذهبت الى باريس حيث عاشت في بعض المنازل القذرة بين الفقراء والمبؤسين

وعلم بها أصدقاء جامبتا فانتشلوها من هذه الوحدة التي القت نفسها فيها وعنوا بها الى يوم وفاتها في سنة ١٩٠٦ . وكان آخر ما كتبه جامبتا وهو يعاني سكرات الموت الاخيرة هذه الكلمات التي أرسلها الى حبيبته وقرأتها بعد وفاته :

«الى نور نفسي . الى نجم حياتي : ليوني ليون. وداعاً ياحبيبتي»

فهرست